الدراسة التاريخية

— ١ —

فى أوائل القرن التاسع عشر ، اكتشف مخطوط تركى يعرف « بالمحيط »، كان « شلبى » أمير البحر للقوات البحرية السلطانية قد كتبه فى أحمد أباد سنة ١٥٥٤م . وقد أوضح البحث أن سيدى على شلبى* الشهير « بكاتب رومى » (١) كان يرأس الحملة التركية التى أرسلت إلى المحيط الهندى لوقف التوسع البرتغالى هناك . وكانت الإمبراطورية العثمانية المسيطرة آنذاك على مصر والجزيرة العربية والجنوب الموصل إلى إيران شديدة الإهتمام بإحراز السبق فى اكتشاف المياه الشمالية للمحيط الهندى ودراسة الطرق المؤدية إليه. وبعد سقوط الخلافة كانت تعتبر نفسها الوارث الشرعى للسلطة على هذه الأجزاء ، وكان « بيرى ريس » — وهو من أقارب « كمال ريس » قائد البحرية فى البحر المتوسط الذى وضع فى غاليبول سنة ١٥١٣ خريطة لنصفى الكرة الأرضية (٢) يحمل لقب « أمير البحار العربية » وهذه التسمية الرنانة تعبر بصراحة عن الرغبة الحقيقية فى الوصول إلى هذا الهدف . وكان التغلغل البرتغالى فى الشرق يتسع بظهور الحملات الجديدة من وراء

---

* هو سيدى على ريس (غلطة لى) وهو من مشاهير البحارة والأدباء والرياضيين العثمانيين وهو أصلا من « سينوب » وهو ابن حسين ريس أمير ترسانة « غلطة لى » . كان ملاحا أبا عن جد وقد ساهم فى الأسفار البحرية لباربا روس خير الدين باشا . واطلع وجرب أحوال وأهوال البحر وكانت له يد طولى فى فنونه . اسمه القلمى « كاتبى » . عين أميرا للبحر بعد وفاة بيرى ريس . وجال فى بحر عمان والمحيط الهندى الى أن عاد سنة ٩٧٠ هـ الى استانبول وتوفى فى ديار بكر فى هذه السنة . وأثره المسمى بالمحيط كتب سنة ٩٦٢ هـ فى أحمد أباد بالهند ويوجد فى مكتبه « روان أو طه سى » (تعرف الآن باسم روان كشك) فى استانبول وترجم بمعرفة « همبر (بورجشتال) » وطبع فى فيينا . ويحتوى فى مقدمته على قواعد علم الهيئة ثم يذكر فى آخر الكتاب أحوال المحيط الهندى والبحر الاحمر وخليج عدن وخليج فارس وبحر عمان . وله أيضا كتاب باسم « مرآة الممالك » وهو مذكرات رحلاته طيلة أربع سنين وطبع فى مطبعة « اقدام » باستانبول وله أيضا كتاب « مرآة الكائنات » فى علم الهيئة وقد ترجم كتاب « على قوشجى » فى الهيئة وسماه « خلاصة الهيئة » .

نقلا عن : محمد الطاهر البروسوى : عثمانلى مؤلفلرى جـ ٣ ص ص ٢٧٠/٢٧١ وقد ترجم هذا النص عن التركية الاستاذ نصر الله مبشر الطرازى بدار الكتب المصرية وأملاه لمترجم الكتاب .

رأس الرجاء الصالح . وكانت العوامل الجديدة التى ظهرت فى وسط شرقى المحيط الهندى سببا فى إزعاج القصر الإستانبولى . فتعقد السلطة والسيطرة على المحيط ، وتزايد النهم الإستعمارى للفرنجة بتعمقهم فى التقدم واكتشافهم مصادر الثروة فى الشرق ، وتوقع توجيه ضربة إلى الشرق من المحيط ، كل هذه العوامل استدعت إرسال حملة « شلبى » لدرء هذا الخطر . ولكن بعد معركتين خاسرتين مع البرتغاليين وقعت السفن التركية التسع فى عاصفة مدة خمسة أيام وبعدها وجد من نجا من طاقمها وعلى رأسهم أمير البحر نفسه مُلقين على شاطىء الجوزرات على البر الغربى للهند . وفى خلال الثلاث سنوات التى أمضاها شلبى هناك استطاع أن يجمع من الملاحين العرب والفرس والترك والبرتغاليين معلومات شفوية وتحريرية عن أحوال وظروف الإبحار فى المحيط الهندى ودرسها بدقة ونتيجة لهذا جمع دليلا فريداً عن هذا الحوض للأغراض العملية للبحرية السلطانية وأسماه «بالمحيط» .

ومن المحتمل أن الكارثة التى أصابته كانت الدافع الرئيسى لوضعه هذه الموسوعة التى قال عنها المؤلف إن من أهم أغراضها درء وتجنب كوارث السفن فى المستقبل . وفى بداية عام ١٥٥٧م ، رجع شلبى إلى وطنه عن طريق البر عبر شمال الهند وبداخشان وخوارزم وفارس . ثم توفى سنة ١٥٦٢م وكان يعمل آنذاك دفتر دارا فى ديار بكر .

ومنذ سنة ١٨٣٤م حتى سنة ١٨٣٩م أصدر العالم الفينى « هامبر بورجشتال » فى ترجمة إنجليزية سلسلة مختارات أو مقتطفات من المحيط (٣) . وفى عام ١٨٤٨ اكتشف « رينو » كبير مستشرقى أوربا الغربية فى ذلك الوقت مقطوعات أخرى من المحيط فى المقدمة الجغرافية « جهان نامة » لحاجى خليفة . وأوضح أن الآثار العربية الموجودة فى عمل شلبى عبارة عن عشر طرق بحرية للسفن — ثلاثة قديمة وسبعة أكثر حداثة . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان التقدم الذى تلا ذلك فى دراسة المحيط يرجع إلى بونالى (٤) وبيتنر (٥) وتوماشيك (٦) .

ولكن بعد مرور حوالى ثلاثة أرباع قرن من تقريظ «رينو» عن المصادر العربية المحيط لم يتمكن «جبريل فيران G. Ferrand» — الباحث الفرنسى المشهور للمؤلفات الشرقية عن المحيط الهندى — إلا من ذكر أسماء وثلاثين هذه المصادر . وفى مرجعه الضخم عن أخبار العرب والفرس والترك عن الشرق الأقصى مدة ألف سنة(٧) ، توجد إشارة إلى أن الثلاث مقالات القديمة ترجع إلى الليث بن كهلان ومحمد بن شاذان وسهل بن أبان . وثلاثتهم لم يكن يعرف عنهم أية معلومات . أما السبع مقالات الحديثة فترجع ست منها إلى سليمان بن أحمد بن الشحر فى الجنوب العربى والسابعة ترجع إلى أحمد بن ماجد من جلفار فى عمان(٨) . وكانت هذه الأسماء آنذاك ترد بالصدفة ولم تجد لنفسها مكانا بين أسماء المؤلفين المعروفين منذ أكثر من خمسين عاما الذين يتمتعون بشهرة كبيرة . ولكن فيران فى فترة انشغاله باكتشافات من الدرجة الأولى من الأهمية سنة ١٩١٢ ، وفى أثناء بحثه عن بعض المواد لكتاباته ، اكتشف هو ودجو دفروا دى مومبينى، مخطوطين عربيين فى المكتبة القومية الفرنسية تحت رقم ٢٢٩٢ ، ٢٥٥٩ (٩) .

والمخطوط الأول يتكون من ١٨١ ورقة تحتوى على تسع عشرة منظومة لوصف الطرق البحرية لابن ماجد وغالبا ما تكون منظومة على بحر الرجز (ومن هنا أتت التسمية أرجوزة) . وتشرح هذه الأراجيز مختلف طرق الإبحار فى البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى . ويحتوى أيضا على إشارة صريحة إلى عشرة أعمال أخرى لنفس المؤلف . والمخطوط نفسه وهو الذى يحمل رقم ٢٢٩٢ لاتوجد به إلا ثلاث مقالات مؤرخة هى المقالة الأولى والثانية والسادسة . أما بقية المقالات أو الأراجيز فلا تحمل أى تاريخ . إلا أن المجموعة كلها تحمل التاريخ ١٥٧٦ . وكان «فيران» قد اعتبر هذا المخطوط نسخة فريدة من أصل غير معروف ولكن بعد عشر سنوات تبين له من مقالة نشرها بمجمع اللغة العربية أنه توجد فى دمشق نسخة أخرى مماثلة

أما المخطوط الثانى الذى يحمل رقم ٢٥٥٩ فيتكون من ١٨٧ ورقة تحتوى على خمسة مؤلفات شعرية أخرى لابن ماجد منها اثنان مكرران فى المخطوط الأول رقم ٢٢٩٢. وما يوجد بها من نثر، مصاغ على نسق المؤلفات عن الطرق البحرية لمعاصره الأصغر سليمان الشحرى الذى يعرف حالياً بسليمان المهرى.

ولم يبدأ فيران فى التعرف على محتوى هاتين المجموعتين إلا فى عام سنة ١٩١٤م. وحتى ذلك الوقت لم يكن هذان المخطوطان معروفين لا فى التراث العربى ولا فى العالم الأوربى. وكلاهما كان نسخة وحيدة. ومن هنا تطلبا بحثاً طويلا معقدا. وكل ماكان معروفاً لدينا آنذاك أن أحمد بن ماجد ربان سفينة ولاشىء أكثر من هذا(١٠). واستطاع «فيران» أن يصرح بأن «محيط» أمير البحر التركى ليس فى مجموعه إلا ترجمة أحياناً ماتكون نقلا حرفياً عن هذين المخطوطين العربيين(١١).

وقد رجع فيران ثانية(١٢) إلى هذا التصريح الذى هز من مكانة شلبى وأعماله التى كانت قد استتبت فى العلم. وكانت الأعوام التالية لعام ١٩١٤ مشحونة بالدراسات العميقة للمخطوطين. وفى سنة ١٩٢٢(١٣) ظهرت مقالة تتضمن المعلومات الأولية عن نتائج هذه الدراسات. وفى العام التالى ظهر المخطوط الأول متضمنا صورة طبق الأصل من هذه النسخة(١٤). ولم يترك المؤلف الثانى(١٥). فقد تمكن «فيران» بفضل المعلومات التى حصل عليها أثناء البحث من التحدث بوضوح عن سؤال هام يتعلق بالتأثير الإيرانى فى المؤلفات البحرية العربية(١٦). وبفضل مقالاته عن ابن ماجد فى «دائرة المعارف الإسلامية» (١٧). أمكن لهذا الاسم أن يدخل نظرياً إلى مجال العلم العالمى المعاصر، وكذلك بطبع كتاب «المدخل إلى الفلك البحرى عند العرب (١٨) تأليف فيران(١٩) بالاشتراك مع ل. دى سوسيورا(٢٠) ثبت ذلك الدور المهم للحضارة العربية التى لايجادلهم فيه أحد.

— ٢ —

يوجد فى تعداد المخطوطات القيمة لقسم معهد الدراسات الشرقية التابع للمجمع العلمى السوفيتى فى لينينجراد مخطوط مقاسه ١٣ × ٢٠سم بجلد أحمر شرقى الطابع به رسومات ويحيط به رباط . ويحتوى هذا المخطوط (٢١) على سبع مؤلفات عن موضوعات مختلفة (٢٢) ترجع إلى مؤلفين مختلفين وعلى حسب الرمز القديم والرمز الجديد الموجود على الصفحة الداخلية للغلاف فإن هذا المخطوط كان ضمن المخطوطات القيمة للمتحف الآسيوى ومنه انتقل إلى مخطوطات معهد الدراسات الشرقية للمجمع العلمى . وفى المتحف الآسيوى كان هذا المخطوط ضمن الجزء المخصص للمخطوطات التى وصلت قديما وكان يحفظ معها . وحقيقة اسمه هى التى تدل على هذا : ففى أغسطس سنة ١٨١٩ بعد عام واحد من عمل المتحف الآسيوى ظهر فى الفهرس الخطى لفرين (٢٣) مؤسس المتحف وأول مدير له . واعتبر المخطوط كله مجموعة تتدرج تحت رقم واحد هو ٨٠٤ ؛ أما تأليف موضوعاته فيتميز بأرقام فى الداخل وفى منتصف الوصف فى صفحة ٢١٦ — ٢١٧ يقول :

رقم « ٤ » سفالبة ، رجز شهاب الدين أحمد بن ماجد (٢٤) .

أرجوزة :

الحمد لله الذى أنشأ الملا من عدم جل تعالى وعلا
واعبد لها بالحزم والصلاة على النهى (٢٥) اتخذ وصاتى

ورقم « ٥ »

عزمت والعزم حميد فى السفر لا سيما من بلدة فيها ضرر
نبيا سما فوق البراق لربه نبى الهدى المدفون فى أرض طيبتى (٢٦)

وهنا يعتبر الالتباس الرئيسى أنه تحت رقم « ٥ » وصف مؤلفين مرة واحدة ، على الرغم من أنهما لنفس المؤلف ومرتبطان بالمضمون العام . ومع

التسرع الأولى للتعرف بالمخطوط لم يلاحظ واضع الفهرس وجود مقالة ثالثة لها موضوع مستقل بل اعتبرها كخلاصة للجزء الثانى .

وهذا واضح من أن فرين اعتبر أن الجزء الثانى يحتوى تسع ورقات ولكن عند العد بطريقته (٢٧) نجد أنه يحتوى على سبع ورقات فقط من ص ٩٧ إلى ١٠٤ أما الورقتان الأخيرتان ١٠٤ ، ١٠٥ فهما عبارة عن المقالة الثالثة . وإذا كان هذا الإغفال لمقالة كاملة قد ترتب عليه تحويل المؤلفات الثلاثة إلى اثنين فإنه من الممتع أن نلاحظ أن هذا التحويل كان كاملا تماما لدى ناسخ المخطوط لدرجة الاحتفاظ به كوحدة مستقلة . وتعتبر المؤلفات الثلاثة ذات غرض واحد (٢٨) لأنه ترد عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » والعبارات التى تليها فى بداية للجزء الأول أما الجزء الثانى والثالث فهما خاليان من البسملة ومن جميع العبارات التى تفتتح بها الكتابة .

وبالطبع فإن انتماءهم إلى مؤلف واحد وكذلك مضمونهم العام ، إلى جانب حجم أشعار الجزء الأول والثانى ، كل هذا يتحدث عن منطقية هذا التصور . لكن بناء هذه المجموعة الثلاثية يتميز قبل كل شىء بأن كل جزء محدد ومستقل فى الموضوع عن الجزء الآخر . وعلى كل حال فقد صحح هذا الالتباس فيما بعد وأصبح فهرس فرين (٢٩) يعكس تعريفا بالمخطوط أكثر وضوحا . فتحت الأرقام ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ وضعت أسماء الثلاث مؤلفات ولم يندرج المخطوط كله تحت رقم واحد بل تحت سبعة أرقام حسب عدد المؤلفات التى يضمها إلى جانب هذه المؤلفات . وبعد « فرين » ظل هذا المخطوط فى النسيان . ولم يذكر فى أى فهرس مطبوع للمتحف الآسيوى سوى فهرس وصف مجموعة روسو (١٨١٧م) الجامع لكل الأصول . ومرت مائة سنة بالتمام منذ تسجيل المخطوط حتى ذلك الوقت الذى أثار اهتمام ذلك العالم الذى تولى المخطوط من مسهده حتى خرج فى صورة هذا الكتاب الحالى .

وقد خصص كراتشكوفسكى فى كتابه عن المخطوطات العربية فصلا كاملا (٣٠) عن هذا المخطوط . وهو أول من توصل إلى نسبة هذه المؤلفات الثلاثة فى مخطوط لينجراد إلى ابن ماجد . وربما أنها لم تكن معروفة للعلم آنذاك . وقد أصبح هذا الافتراض مؤكدا بعد أن سئل عنهم « فيران » الذى كان يعتبر فى العقد الثانى من قرننا ، الخبير بكل ماحفظ من أعمال الملاّح العربى وصاحب الفضل فى إدخال اسمه إلى دنيا العلم . وكان رده « فيران » هو أن أراجيز الطرق البحرية الموجودة فى مخطوط لينجراد ليست لديه بها سابق معرفة. وعلى الرغم من كل تشويقات كراتشكوفسكى وإغراءاته له بأن يتولى دراستها إلا أن فيران لم يتمكن من أخذ هذا العمل على عاتقه . فقد كان عليه أن ينجز بعض المسائل التى لا يمكن اجارؤها إلى جانب أن بعض الأمور العلمية أرغمته على أن يضع الأدب العربى البحرى فى المرتبة الثانية . ومع أن صورة هذا المخطوط الوحيد قد أرسلت له وقدرها حق قدرها وعزم على إصدارها إلا أن موته فى ٣١ يناير ١٩٣٥ حال دون تحقيق هذه الفكرة . وهكذا بقى المخطوط دون أن ينشر. لكن العالم الذى اكتشفه لم يرد أن ينساه . ففى محاضراته عن تاريخ الأدب العربى وفى بعض مقالاته المنشورة (٣١) نجد إشارة إلى الثلاثة طرق البحرية المجهولة لابن ماجد .

وفى ربيع سنة ١٩٣٧ كنت طالباً فى جامعة لينجراد ودرست على يد كراتشكوفسكى طرق تحقيق المخطوطات العربية . وفى نهاية إحدى محاضراته لفت نظرى إلى المخطوط ٩٩٢ — B وأشار على بشرح الأجزاء التى تثير اهتمامى . وعلى الفور اخترت أراجيز أحمد بن ماجد وعندما تحققت بنفسى أن هذه الأراجيز لم يشر إليها فى الأبحاث المنشورة وأنها فريدة فى بابها شعرت بنفسى أقف على عتبة عمل كبير معقد لكنه جدير . وبعدها بدأ البحث . وفى خلال الصيف والخريف أعددت الوصف الأولى للأراجيز

وتفسير المسائل المتعلقة بالمضمون والتواريخ واللغة والدراسة الخطية والمعنى العام . وفى بداية عام ١٩٣٨ ووفق على طبع هذه الدراسة فى دار الطبع التابعة للمجمع العلمى . ولكن لم يتسن لها أن ترى النور . ففى هذا الوقت اضطرتنى الظروف إلى الابتعاد عن الأعمال العلمية مدة ثمانى سنوات ونصف . وفى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٦ شعرت بارتياح كبير لوجود مخطوطى كاملا وسليما على أثر عودتى إلى لينينجراد بعد تلك الأعوام الثقيلة من حصارها والجلاء عنها . وتجدد العمل بخطى ثابتة ووتيرة قوية بغض النظر عن الصعوبات الظاهرية التى كانت تتطلب عادة وقفات زمنية ليست بذى بال . وفى ربيع ١٩٤٧ كان النص جاهزاً ومن يونية حتى أكتوبر أعددت الشروح والتعليقات الرئيسية . وفى الخريف اكتمل إعداد الترجمة والمقدمة . وماتلا هذا من الوقت كان لإنهاء البحث والتغلب على الصعوبات المترتبة على عدم وجود صلات مستمرة مع المواد العلمية فى لينينجراد . وينبغى عند تقويم المحاولة الأولى لدراسة الطرق البحرية الثلاثة المجهولة لابن ماجد أن يؤخذ فى الاعتبار أن هذا العمل لا يدعى لنفسه أنه استغرق تحليل الموضوعات تحليلا كاملا . بل العكس هو الصحيح فهذا العمل يهدف إلى دفع الأبحاث فى المستقبل نحو التعمق فى دراسة الموضوع .

«العرب لايحبون البحر» . هكذا أشار كراتشكوفسكى (٣٢) ذات مرة . «فإن الصورة العامة لهذا الشعب يحددها لدينا عادة تصورنا لصحراء بلا ماء، وقوافل بطيئة هى سفن هذه الصحراء وأماكن نادرة من الواحات الداخلية . ولكن وضع شبه الجزيرة أدى إلى حتمية الاتصال الفعال مع العالم الشرقى الخارجى ، وفتح للعرب مبكراً الأفق الواسع للمحيط خارج نطاق المجال الصحراوى المعهود . وقلما راودنا حتى الآن التفكير فى هذا الجانب من الثقافة العربية . فالمحيط الهندى بعيد عنا ولم يكن لنا به اهتمام مطلقاً وغالباً ماكانت صوره التى وصلت إلينا قائمة على أساس متزن من

البحث العلمى احتجبت فيه العناصر الشاعرية . وقدأخذ المبادرة منادفيران» وزملاؤه من العلماء الممثلين للامبراطورية الفرنسية والذين ساعدوا على تغلغل نفوذها إلى الشرق . وعلمنا يحركه غرض نبيل نحو شعوب الشرق ويجب أن نسمع صوته ونعلى كلمته فى مجال أدب الملاحة العربية » .

وعلى كل حال فإن هذا البحث يزيد عدد مؤلفات ابن ماجد المعروفة للعلم من ٣٢ مؤلفاً إلى ٣٥ مؤلفاً . وبصرف النظر عن التقيد بهذا الزيادة العددية فإن التحليل التالى يوضح أن الطرق البحرية الثلاثة لاتعتبر زيادة فى الكم فحسب بل وفى الكيف أيضاً . ويبدو لى أن أهمية هذا العمل تتمثل أيضاً فى أنه يفتح مجالات أوسع للتعميم . فموضوع العرب والبحر مازال ينتظر المزيد من البحث ودراساتنا بحيادها تقوى بالصعاب ومن ثم فإنها تحمل عبء هذا البحث على أكتافها .

ابن ماجد : مجهوداته وأعماله

— ١ —

إن كل ماحصل عليه «فيران» من مواد جافة ، وتحدث عنها ، هى بعيدة كل البعد عن الكمال . فمن بين الاثنين والثلاثين مؤلفاً التى ثبت(٣٣) أنها من مؤلفات ابن ماجد ليس هناك أى مؤلف منها يحتوى على حقائق لها علاقة بسيرة المؤلف . ومن هنا كانت عدم معرفتنا بتاريخ ميلاده ووفاته وكذلك فترة تأليف معظم أعماله . إلا أنه فى هذا الصدد يمكن الاهتداء بالمعروف من تواريخ مقالاته أنها بين سنة ١٤٦٢ — ١٤٩٥ على اعتبار أنه لا يوجد قبلها أو بعدها أية مؤلفات وهو أمر يجب أن نعترف بأنه مؤسس على استناد ضعيف .

والآن فقد أصبحت الصورة العامة عن المؤلف معروفة . فالبداية وضعت وأصبحت الأبحاث التالية سهلة نظراً لوجود هذه البداية المدعمة . فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك

بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبى معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى ويدل نسبه على أن أصل أجداده من الشمال العربى أما هو نفسه فسقط رأسه مدينة « جلفار » بعمان .

هذا على الرغم من أن المؤرخين البرتغاليين للقرن ١٦ أرجعوا نسبه جهلا إلى أصل هندى وأسموه « بحار الجوزرات » — «جويش وكاشتانيدا» أو بربرى الجوزرات — «باروش» (٣٣ أ) . وفى اعتقادى أن الموقع الجغرافى لموطن ابن ماجد تحكم فى اختيار مهنة بعض من حمل اسم عائلته . فعمان توجد عند مدخل المحيط الهندى وعلى شاطىء الخليج العربى — أى على طرق التجارة المنتعشة التى تأتى من من أسواق المحيط الهندى إلى المناطق الغنية المتجمعة حول «بيرسبول» الساسانية ثم حول بغداد العباسية . وعلى الضفة الأخرى سيراف وخوارزم وهما مدينتان قديمتان فى إيران كانتا المركز الدولى للتجارة البحرية (٣٤) وعن طريقهما مباشرة إحتفظت جنوب غرب آسيا بالعلاقة التجارية المستمرة مع الشاطىء الشرقى لأفريقيا ومدغشقر والجزء الغربى من الهند وسيلان وجزر أندونيسيا ؛ وكذلك احتفظت بالعلاقة التجارية مع الصين البعيدة (٣٥) . وبالطبع فإن شعب كل من الشاطئين العمانى والفارسى كان مرتبطا بالبحر منذ وجوده . وكان بعضهم مقيداً طول حياته بعمل شاق هو صيد اللؤلؤ ؛ وبعضهم حقق ثروة عن طريق السمسرة فى التجارة ، وسعيهم المستمر وراء الكسب السهل . وأصبحوا ملاك سفن وقاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط إلى الأراضى الغنية فى شرقه وغربه (٣٦) . أما البعض الآخر فقد وهب نفسه لدراسة فن الإبحار وتفهم قواعده وأصوله الثابتة الموجودة فى أوراق البردى الإيرانية القديمة (راه نامك) التى تنوقلت من جيل إلى جيل وأصبحوا ملاحين بفضل معرفتهم الجيدة بالبحر . ولكن الواقع القاسى لحياة البحر أدى إلى إدخال بعض التعديلات على القواعد القديمة وضرورة تحديد الخلاف بين النواحى النظرية والعملية . ومن هنا قام كل ملاح بتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات البحرية .

وإلى هذه المجموعة الأخيرة ينتمى ابن ماجد الذى ورث هذا العمل عن جده وأبيه . ففى القرن الخامس عشر لم يكن من النادر وجود عائلات توارثت فن الملاحة .

والملاح هو فى نفس الوقت قبطان السفينة ويعتبر الرجل الثانى بعد صاحبها . وعليه تقع مسئوليات جسام . فالحفاظ على أرواح طاقم السفينة والبضائع الثمينة وسلامة وصول السفينة إلى الميناء المقصود ، كله يتوقف على معرفته بظروف الإبحار فى الطريق المطلوب ويتوقف على قدرته فى التغلب على الصعاب المختلفة والأخطار غير المتوقعة أحياناً . وكل هذا كان يتطلب من قائد السفينة توفر مهارات مهنية وسيطرة على كمية هائلة من المعلومات النظرية والعملية . ويجب أن يكون شجاعاً غير متهور ، حذراً غير كسول ، محافظاً غير متزمت ، ذا أخلاق عالية لكن غير متساهل ، دقيقاً فى الكلام ، صارماً فى العمل ، وأن يكون أستاذاً فى عمله على السفينة ومثالا للأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المواطن فى أرض غريبة (٣٧) .

وأهم واجب معنوى للملاح ألا يهرب من سفينته ولا يتركها حتى الرمق الأخير وأن يكون وفيّا لها بغض النظر عن أى شىء . وهذا الواجب واضح حتى فى الآثار القديمة للأدب العربى كما عند القبطان بزرج بن شهريار فى عجائب الهند :

« نحن الأخوة الملاحين مرتبطون بواجبنا وأقسمنا ألا نغادر سفننا حتى النهاية المهلكة . نحن الملاحين نصعد على ظهر السفينة وبهذا ترتبط بها حياتنا ومصيرنا ، فإذا نجت السفينة نجونا وإذا هلكت هلكنا معها » (٣٨) .

وفى عصر ابن ماجد كانت الشروط التى ينبغى توافرها فى الملاح قد أخذت معنى كبيراً لدرجة أنها كانت مدونة ضمن القوانين الهامة للدولة . ويتضح هذا فى القوانين البحرية لمملكة الملايو الصادرة بأمر الأمير محمود شاه وكتبها بعض الملاحين من الملايو حيث يقول فى « المقدمة » :

« هنا قوانين متبعة لاستعمال المراكب وجميع السفن عامة فى البحر والموانىء . فعلى كل شخص أن يتكيف مع ماهومقرر عليه حتى يتمكن من تأديته بالضبط وبنظام تام . ويجب مراعاة هذه القوانين فى كل المناطق التى تخضع لسيطرتنا وحيثما توجد الهيئات البحرية التى لها حق التفتيش البحرى . أما القوانين المدنية فتسرى على المناطق الداخلية من الدولة ولذلك يجب اتباع القوانين البحرية على البر . وللبحارة القوة والسيطرة على ظهر السفينة حتى يأمنوا من الخلافات والمنازعات ويمنعوا أى فرد من التصرف على هواه ويتجنبوا الصعاب غير المتوقعة المحتمل حدوثها فى البحر . فإذا اتبعت هذه القوانين فمن يجرؤ على الوقوف أمام صاحب السفينة ؟ فهذه القوانين صادرة عمن له العظمة والسلطة علينا السلطان محمود شاه المسيطر على أراضى الملايو ليؤمن التجار الأجانب ذوى العلاقات الطيبة معه ومع المسلمين فى البحر وعلى اليابسة .

أما الفصل الثامن فيرد الكلام عن المعلم (٣٩) المسئول عن قيادة السفينة .

فالمعلم إذا حدث له أثناء الأبحار أن تعرض لأزمة فيجب عليه بعد عودته إلى وطنه أن يوزع صدقات على الفقراء بمناسبة نجاته من الأزمة . وإذا حدث أن أهمل فى قيادة السفينة وترتب على هذا أن اصطدمت السفينة بعقبة وتحطمت فهو محكوم عليه بالموت إذا لم تظهر عناية الله الجبارة بعبده .

وواجبات المعلم سواء فى البحر المفتوح أو على الأرض، تنحصر فى دقة انتباهه وملاحظته ومعرفته للرياح والعواصف والاتجاهات وحركات القمر والنجوم وأسس التقويم الزمنى والموانىء والشواطىء المختلفة والجزر والشعب المرجانية والمياة الضحلة والهضاب والجبال. وكل هذه الأمور يجب أن يكون على وعى بها حتى يكون طاقم السفينة فى أمان تام فى البحر والبر وحتى يكون

فى مأمن من الأخطاء . وإلى جانب هذا يجب ألا ينسى مطلقاً الصلاة لله ولرسوله ، ليأمن الشرور والأخطار . والمعلم ينظر إليه القانون على أنه إمام وهو لا يمكنه أينما كان أن يحصل على إذن بمغادرة السفينة فهكذا القانون وعادات البحر(٤٠) .

ولا يعتمد نجاح الرحلة على المعلم أو الربان فحسب ، بل إن التوزيع الصحيح للواجبات على كل أعضاء الطاقم يلعب دوراً كبيراً إلى جانب الصداقة والتفاهم فى العمل بين كل من وزع عليهم واجبات الرحلة . ويتحدث أبو الفضل العلامى مؤلف القرن السادس عشر عن تقسيم الطاقم وواجبات كل فرد من أعضائه فيقول مامُفاده:

يعتمد عدد الملاحين فى طاقم السفينة على حجمها . فى السفن الكبيرة ينقسم طاقمها إلى اثنى عشر قسما :

١ — ناخدا : أو صاحب السفينة

٢ — المعلم أو الربان(٤١) : ويجب أن يكون على إلمام تام بالسفن فى المحيط أو بغاطسها إذا كان كبيراً أو صغيراً وأن يكون على معرفة بعلم الفلك . وهو الذى يقع على عاتقه قيادة السفينة إلى مقصدها وتجنيبها الأخطار .

٣ — تنديل : وهو كبير الملاحين الذين يسمونه بلغة البحر «خلاصى» أو «خاروة» .

٤ — ناخدا خشب : وهو الذى يمون الركاب بالخشب والقش للتدفئة ويساعد فى شحن وإنزال ما بالسفينة .

٥ — سر هنك : وهو الذى يتولى عملية إرساء السفينة وعادة ما يخلف المعلم .

٦ — بهشدارى : وهو الذى يتولى حفظ وخزن الطعام والمأكولات .

٧ — كرّانى : وهو الكاتب الذى يتولى تسجيل المكاتبات على السفينة ويوفر الماء للركاب .

٨ — سكان گير : أو ماسك الدفّة وهو الذى يوجه السفينة حسب إشارة المعلم . وهناك سفن لها كثير من ماسكى الدفة لكن عددهم لايزيد عن عشرة .

٩ — پنجرى : وهو الذى يوجد على أعلى الصارى ويبلغ كل مايراه عن الأراضى والعواصف التى تواجه السفينة .

١٠ — كنمتى : وهو ينتمى إلى فصيلة الخلاصى . ويقوم بعملية إزاحة المياه التى تتسرب إلى داخل السفينة عند السير .

١١ — توب أنداز : أو الصفوف المحاربة ويستعان بهم فى الاشتباكات البحرية . وحجم السفينة هو الذى يحدد عدد الجنود .

١٢ — خاروه — أو بحارة : وهؤلاء يتولون رفع الصارى وإنزاله ولدى بعضهم واجبات أخرى كمنع اندفاع المياه إلى السفينة أو تخليص المرساة (٤٢) .

بيد أن العمل السليم المنظم لطاقم السفينة والتعاون السليم لكل أجزاء جهازها الحى يعتمد أولا وأخيراً على كيفية تنظيم الربان وهيمنته على واجبات المرءوسين . والمعلم هو عقل السفينة وقلبها المتحرك وروح العمل المشتغلين عليها وكل هذا يضطره أحياناً إلى علاقة قاسية مع نفسه طالما أن قوانين البحر قد ألزمته بهذا . وهذه الشروط العالية هى التى يتطلبها ابن ماجد نفسه فى مهنته حيث يقول :

« أعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسباب كثيرة فأفهمها فأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والإشارات وحلول

الشمس والقمر والرياح ومواسمها ومواسم البحر وآلات السفينة ومايحتاج إليه وما يضره وماينفعها وما يضطر إليه فى ركوبها وماينبغى تعرف المطالع والاستوايات وجلسة القياس وترتية ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها وممرها إن كان معلما ماهرا وينبغى أن تعرف جميع البرور وندخانها وإشاراتها كالطين والحشيش والحيات والحيتان والموارز والأرياح وتغير الأمواه ومد البحر وجزره فى كل طريقة ويكمل جميع الآلة ويتفقد فى أحضان السفينة وآلاتها ورجالها ولايشحنها غير العادة ولا يطلع فى مركب إلا يطاع فيه ولامركبا بغير إعتداد ولا فى موسم ضيق ويحترز عن الأخطار فى مثل عدة ورجال وغيره. وينبغى للمعلم أن يعرف الصبر من التوانى ويفرق بين العجلة والحركة عارفا عالما بالأشياء عزاماً فتاكا لينا (١) فى قوله، عادلا لا يظلم أحداً لأحد مقيما (٢) على الطاعة لربه متقياً (٣) لله تعالى لا يغضب التجار على حقوق إلا على شىء وقع عليه القول أو جرت به العادة، كثير الأحتمال، عالى الهمة، صباراً مقبولا بين الناس لا يسعى فيما لا يصلح له، أديباً لبيبا وإلا قليس هو معلم بالقاعدة فإذا كملت فيه هذه الخصال فالمبتدا أولا بمعرفه المنازل وكل نجم منها له اسم مشتق منه سبب اسمه فينبغى أن يعرف الجميع ».

وكان ابن ماجد يتبع هذه المبادىء والتعاليم بحرفيتها وقد رسمها لنفسه بدون تبعية للأصول المرعية المدونة. وبالنسبة لمن توصل إلى أسرار مهنته وعاش معها عشرات السنين ووضع نفسه فى مواجهة الصعاب والتغلب عليها، فمن الجائز أن يصبح كل هذا مادة له للفخر بهذه المهنة. وإن المعلومات الخاصة لابن ماجد كانت كبيرة جداً. فلقد عرف بتعمق أحواض المحيط الهندى من البحر الأحمر حيث تخصص والده والخليج العربى حيث نشأ ابن ماجد على شواطئه وترعرع، إلى شرق أفريقيا وجزر الملايو وجنوب الصين.

---

(١) فى الأصل « لين ». (٢) فى الأصل مقيم. (٣) فى الأصل متق.

وإن تجربته الغنية بقيادة السفن أعطته شهرة واسعة فى الشرق ثم فى شبه جزيرة « البيرنيه » (أسبانيا) كما سنرى فيما بعد .

وإن ما كان يتناقل شفاها من جيل إلى جيل فى صورة أقاصيص بحرية احتفظ له بألقاب « أسد البحر » و « شاعر القبلتين » مكة والقدس . ولعل اللقب الأخير أكثر غلوًّا . فإننا لا نجد فى مؤلفات الملاح العربى عمق الفكرة ولا جمال التركيب . ولغة هذه المؤلفات جافة غير مشذبة وهى إما زائدة فى الأطناب أو بالغة فى الاختصار . فالرجل يهتم بالناحيه العملية ولم يكن يهتم بجمال التعبير . ولكن ما كان يعنيه دائماً هو ضبط الفكرة ووضوحها وهذا يعنى أنه كان ينظر إلى اللغة لا كهدف وإنما كوسيلة لتوضيح الأمور العلمية . ولم يكن ابن ماجد فى يوم من الأيام شاعراً ، ويبدو أنه كان يبتعد عن الشهرة الزائدة التى أطلقها عليه المعجبون به وهو يلقب نفسه بتواضع « أسد البحر الرابع » وأحياناً « رابع الثلاث » ويقصد بهم الليث بن كهلان (٤٣) ، ومحمد بن شاذان وسهل بن أبان . وهؤلاء لم يعرفوا إلا عن طريقه وكانوا من الملاحين العرب المشهورين فى القرن الثانى عشر ولهذا يعتبرون سابقين له فى المهنة .

ولم يستطع ابن ماجد ألا يعترف بأنه من الملاحين الذين كانوا يبحرون قرب الشواطىء وأنهم سابقوه القدامى فى المهنة . وقد أبحر عشرات السنين فى كل المحيط الهندى وذهب إلى آفاق بعيدة واستطاع أن يسمى نفسه « بليث البحر » دون أى تأنيب من ضميره .

— ٣ —

عندما استطاعت رحلة فاسكودى جاما الوصول إلى مابعد رأس الرجاء الصالح ، وانفتح أمام ناظر الأوربيين محيط جديد ، لم يخاطر أمير البحر بالإبحار فى المحيط الذى لايحده شاطىء واتجه بحذاء الشاطىء الشرقى لإفريقيا

وتوقف فى مالندى حيث شغل بالبحث عن ملاح من هذه المنطقة. وكان ملك مالندى يشعر نحو الأجانب الغرباء بشعور طيب. وعلى الفور أشار عليه بابن ماجد. ودعا « دى جاما » الملاح المشهور إلى سفينة القيادة الضخمة. ولنعطى الكلمة لباروش المؤرخ البرتغالى فى القرن السادس عشر :

« فى أثناء وجود فاسكودى جاما فى مالندى كان معه جماعة من الهنود توجهوا إلى أمـــير البحر على ظهر السفينة وكان يوجد أحد البربر من الجوزرات يدعى « مالموكانا » . وللتمتع بحديث مواطنينا ولإرضاء ملك « مالندى » الذى كان يبحث عن ملاح للبرتغاليين ، قبل ابن ماجد أن يتوجه معهم إلى السفينة. ورضى دى جاما كل الرضا عن معلوماته بعد التحدث معه وخصوصاً بعد أن عرض عليه الأعرابى خريطة لكل الشواطىء الهندية مرسومة كما هو عند العرب عامة بخطوط الطول والعرض وفى غاية الوضوح ، ولكن بدون الإشارة إلى الرياح بين خطوط العرض. وذلك لأن مربعات خطوط الطول والعرض كانت فى منتهى الصغر. واتضح أن الخريطة فى منتهى الدقة (٤٤). وأرى دى جاما هذا العربى أسطرلابا كبيراً من الخشب كان قد أحضره معه وكذلك أسطرلابات معدنية أخرى لقياس ارتفاع الشمس والنجوم. وعند رؤية هذه الأجهـــزة لم يظهر الأعرابى أى اندهاش أو استغراب بل قال إن الملاحين العرب فى البحر الأحمر يستخدمون أجهزة مثلثية ومربعية الشكل لقياس ارتفاع الشمس وخصوصاً النجم القطبى. وأضاف الأعرابى أنه نفسه وغيره من الملاحين يبحرون من « كمباية » ومن كل أنحاء الهند ويستعينون ببعض النجوم الشمالية والجنوبية إلى جانب النجوم الواقعة فى منتصف السماء وكذلك الشرقية والغربية منها . ولهذا فهم لا يستخدمون الأسطرلاب إنما يستخدمون أجهزة أخرى عرضها لهم وهى تتكون من ثلاثة ألواح ولها نفس الهدف لدى ملاحينا. وبعد هذا الحديث مع الملاح حصل دى جاما على انطباع مُفاده أنه وجد فى ابن ماجد ثروة كبيرة. وحتى لا يفقده أمر على الفور بالإبحار إلى الهند وفى يوم ٢٤ أبريل اتجه فى الطريق،

ووصل دى جاما إلى كاليكوت [1] فى ٢٠ مايو من نفس العام أى فى أقل من شهر . وأرسل ماليموكانا إلى اليابسة ليبلغ ملك البلاد بوصول البعثة البرتغالية .

وتوجه الملاح العربى من كاليكوت إلى كابوكات حيث يقيم أعرابى يعرف باسم « ابى سعيد » وهو الشخص المسئول عن أعمال التجارة (٤٥) .

وهذا دليل من مذكرات « جويش » :

« أعطى مالندى فاسكودى جاما ملاحا جيداً هو أعرابى من الجوزرات يعرف باسم « ماليموكانا »(٤٦) . وفى النهاية نورد دليل كاشتانيدى :

« وصل فاسكودى جاما إلى مالندى فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٨ وفى ٢٢ أبريل أرسل إليه ملك مالندى ملاحا من الجوزرات يدعى « كانا كا » . وفى ٢٤ أبريل (٤٧) أبحر معه دى جاما إلى كاليكوت . وفى ٢٤ أبريل ١٩٤٨ قاد ابن ماجد سفينة فاسكودى جاما متجها إلى الشرق ، وبعد شهر ، فى ٢٠ مايو وصلت الحملة بسلام إلى كاليكوت على الضفة الغربية للهند(٤٨) . ولأول مرة فى التاريخ البشرى ، وبفضل أستاذية الملاح العربى فى فنه تمهد الطريق البحرى من اوربا إلى ثروات الشرق الأوسط التى كان الغرب يتحرق شوقاً إليها . وقد أعطى شهرة كبيرة لابن ماجد ماردده كامونس من مدح كبير له حيث يقول :

« هو قائد وموجه للسفينة ، لم يكن فيه شىء من الكذب ، فهو كان يبحر للأمام متجها فى الطريق البحرى الصحيح ، وبفضله أصبح هذا الطريق يجتاز بثقة كبيرة عما كان من قبل »(٤٩) .

وكان لهذا الحدث تأثير مضاد على الشرق فشعوب المحيط الهندى قاست بعدها من ويلات القراصنة والمختلسين والمستغلين ذوى المآرب الهادفة

---

(١) أى كلكتا بالهند

إلى الغنى عن طريق الثروة الموجودة على اليابسة . وكل هذا مصحوب بإرساء قواعد السيطرة البرتغالية .

ومن خلال كتابات كاتب القرن ١٦ قطب الدين النهروالى فى ملاحمه البطولية تظهر كراهية واضحة المستعبدين الأجانب ، وتحسرو ألم على ابن وربيب وطنه الذى أراهم الطريق إلى جواهر الشرق » :

فالمخطوط (١٦٥٠ص ٥ب) الفصل الثانى (الباب الأول) فى ذكر إنتقال الدولة باليمن من بنى طاهر إلى الأمير حسن من الجراكسة ، يقول : «وقع فى أول القرن العاشر من الحوادث الفوادح النوادر دخول الفرتقال (البرتغال) اللعين من طابقة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من «سبته» فى البحر ويلحقون فى الظلمات ويمرون خلف جبال القمر بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر أى أبيض وهو مادة أصل بحر النيل ويصلون إلى المشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل من مضيق أحد جانبيه جبل والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفانيهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طايفتهم أحد إلى بحر الهند إلى أن خلص منهم غراب (*) إلى الهند فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له أحمد بن ماجد صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الأملندى (Almirante بالبرتغالى) (٥٠) وعاشره فى السكر فعلمه الطريق فى حال سكره (٥١) وقال لهم لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند وبنوا فى «كوة» (جوا) بضم الكاف العجمية وتشديد الواو ومعناها اسم لموضع من ساحل الدكن . . . . . ، قلعة يسمونها «كوتا» (ومعناه حصن أو تقرية باللغة الهندية القديمة) ثم أخذوا هرموز وتقووا هناك وصارت الأمداد تترادف

(*) سفينة

عليهم من البرتغال فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا ويأخذون كل سفينة غصبا إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين فأرسل السلطان مظفر شاه بن محمود شاه بن محمد شاه سلطان كجرات يومئذ (يومئذ) إلى السلطان الأشرف قانصوه الغورى يستعين به على الإفرنج ويطلب العدد والآلات والمدافع لدفع ضرر الأفرنج عن المسلمين» (٥٢) .

ويتبين من تحليل مخطوط لينجراد أن جزءاً كبيراً من أرجوزته تتشابه وتقترب من هذه الصورة بتصويرها للمستبد البرتغالى بنغمات وألوان مماثلة . وهذه الصورة غير موجودة فى أعمال أخرى لابن ماجد . وهى تفيض بتصوير عذاب الرجل المضحوك عليه ، والحسرة والندم على ما أقدم عليه ، والنقمة والغضب على البرتغاليين . إن هذه الصورة أو هذا الوصف وثيقة لا تقدر بثمن لواقع الرحلة نفسها التى كان ابن ماجد كما يبدو مخلصاً لها حتى النهاية .

— ٣ —

إذا كان المؤلفون العرب يعتبرون أن الوصف الجغرافى للبلاد الساحلية البحرية لا يتطلب بالضرورة رؤيتها رؤى العين فإن عكس ذلك تماما فى الجغرافيا البحرية حيث تتناسق النواحى النظرية مع التطبيقية أو العملية . فالملاح ، وهو فى نفس الوقت ربان السفينة ، يستعين بما يتوافر لديه من الإرشادات لكى يحدد موضعه بصفة علمة ، لكنه يدخل على هذه الإرشادات التصحيحات أو التعديلات والإضافات من واقع تجاربه اليومية . ومن هنا تتكون على مر الزمن خرائط جديدة للطرق البحرية . ولن يتسنى لدخيل على المهنة مهما كان حظه من التعليم عالياً أن يوجه الملاحين أو يرشدهم مالم يكن هو نفسه ملاحا . فالتفاعل الحى الخلاق بين العموميات النظرية والمجهودات العملية هى الخاصية التى تتميز بها الجغرافيا البحرية عن باقى الميادين فى الأدب العربى .

وتظهر هذه الخاصية بوضوح شديد فى أعمال ابن ماجد . وليس من قبيل العبث أن يظهر إلى جانب لقب « أسد البحر » الذى يصاحب اسمه عادة ، لقب آخر هو « رئيس علم البحر » . فقد وهب البحر مايقرب من نصف قرن من حياته الرشيدة . ولقد ورث المهنة أبا عن جد ، وأطال فى مسالكهم البحرية . ومن مقتبل العمر حتى آخر أيام حياته قاد سفناً ، مختلف أصحابها ، عبر الطرق القديمة للمحيط الهندى من جده إلى كردافور ، ومن عمان إلى سفاليه ومنها إلى الهند وإلى جزر الملايو وإلى خلجان جنوب الصين . وفى هذه الرحلات التى تتطلب خبرة مهنية كان ينظر وينصت إلى كل شىء ، ويزن ويقدر بدقة ، وينتقى ماهو ضرورى ، وبمراجعته لتجاربه وخبراته كان يحسن دائماً فى معلوماته العملية . ومع مرور عشرات السنين اجتمع له بعض الشهرة والفن وجمعته التقاليد بالملاحين الأسطوريين الثلاثة فى القرن الثانى عشر .

وبصرف النظر عن الفترة الزمنية التى تفصل بينهم فإن ابن ماجد استحق أن يلقب بـ « رابع أسود البحر » . وإن ملك « مالندى » الذى يصف « لوسياد » معاملته للبرتغاليين بأنها طيبة ، قد أشار فوراً على « دى جاما » بابن ماجد على أنه الرجل الذى يتوقف عليه نجاح الرحلة . وبعد صراع شديد مع الرياح على حد تصوير « كاميونس » الرائع أوصل الملاح العربى أول الأوربيين إلى الهند . وعندها ذاع صيته ووصلت شهرته إلى جزيرة البيرنيه البعيدة . وبعد ٦٠ عاما يقوم « شلبى أمير البحر التركى والناشر المترجم لابن ماجد ويصفه بأنه الباحث عن الحقيقة من الملاحين وأفضل من يوثق به من الملاحين والبحّارة فى جنوب الهند فى القرنين ١٥ ، ١٦ (٥٣) . ومن بين نصف قرن من الجهد فى البحر، هناك، أربعون عاما من أعمال ابن ماجد تقدم مثالا للدأب والمثابرة على نشر علم الملاحة البحرية . وقد ألف كثيراً من الأزهار فى معرفة البحار . وإن هذا الكتاب يجعل مؤلفاته خمسة وثلاثين وليس هناك تأكيد بأن هذا العدد يعتبر نهائياً .

ويعطينا تحليل محتويات المخطوط ٢٢٩٢ الموجود بالمكتبة القومية (٥٤) بباريس — والذى يحفظ كثيراً من أعمال ابن ماجد — امكانية وضع إطار عام لموضوعات الجغرافيا البحرية عند العرب .

ويحتوى المخطوط على ١٩ مؤلفاً ، يحتل المركز الأول منه « كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » المؤرخ ٨٩٥ / ١٤٩٠ والذى يعتبره « فيران » أكثر أعمال ابن ماجد نضجاً وألمعية (٥٥) . وينقسم هذا الكتاب إلى اثنى عشر فصلا من الفصول المفيدة (٥٦) : ١ — أصل الإبحار والأبرة المغناطيسية ٢ — الصفات والمعارف المطلوبة فى المعلم ٣ — أوجه القمر ٤ — الأخنان ٥ — الجغرافيون والفلكيون السابقون ٦ — فى الديرات الثلاثة أى المسالك البحرية ٧ — فى الباشيات والقياس ٨ — فى الإرشادات والسياسات وتركيب المركب والمعسكر ٩ — وصف السواحل وبمجموعات المعلمين الثلاث ١٠ — فى الجزر الكبار المشهورات أى وصف أكبر جزر فى العالم : جزيرة العرب ، والقمر ، ومدغشقر ، وسومطرة ، وجاوة والغور وسيلان وزنجبار والبحرين وسوقطرة ، وابن جاوان (١٥٦) ١١ — فى المواسم (أى الرياح الموسمية) ١٢ — فى صفة بحر قلزم العرب وجزره وشعبانه .

أما المركز الثانى فتحته « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » . وهى باكورة من إنتاج ابن ماجد ترجع إلى سنة ٨٦٦/١٤٦٢م وتعتبر ملخصا مختصراً لعلم الملاحة البحرية . وهى منظومة بالشعر ، وتبتدىء بسلسلة مزخرفة من الأراجيز والقصائد تختلف فى أحجامها وموضوعاتها الرئيسية . وسنكتفى بذكر أهمها :

رقم ٤ : أرجوزة « تحفة القضاة » وتصف طريقة إيجاد « القبلة » لمكة بواسطة خطوط الطول والعرض أو بالبوصلة .

رقم ٥ : « أرجوزة » بر العرب فى خليج فارس . وفيها وصف لجزيرة البحرين ، وخارج ، داس وضرى ، لاز ، رعنا ، الكهن ، قيس ، هندرانى ، طُنُب ، هنجام .

رقم ١٣ : أرجوزة فلكية عن « أسد (٥٧) الله المظفر أمير المؤمنين الله على بن أبى طالب (٥٨) .

رقم ١٤ : أرجوزة وصف الطريق بين مكة وجدة إلى رأس الفرتك ، إلى كاليكوت، ودابول وكَنْبَكَن ، وجوزرات والأطواح وهرامين (٥٩).

رقم ١٦ : القصيدة الذهبية بقافية الباء وهى تعالج موضوع المرق والمغْزِر والأشاير كالطين والأرياح (٦٠) .

رقم ١٧ : الأرجوزة المسماة بالفايقة فى قياس الضفدع (٦١) . وكل هذه المقطوعات الصغيرة السبعة عشرة غير مؤرخة ماعدا أرجوزة بنات نعش رقم ٦ المؤرخة سنة ٩٠٠/١٤٩٥م .

وفى مخطوط آخر بالمكتبة القومية بباريس (٢٥٥٩) توجد ثلاثة مؤلفات أخرى لابن ماجد (٦٢) وهى عن الطرق البحرية الصغيرة مشروحة بالشعر وبقواف على مختلف الحروف العربية . وتحتل أهم مكان فى هذا المخطوط خمسة مؤلفات أخرى كبيرة عن الملاحة البحرية مكتوبة بالنثر وتنسب إلى معاصر أصغر لابن ماجد وهو ملاح يسمى سليمان بن أحمد المهرى المحمدى (النصف الأول من القرن/١٦) (٦٣) من مدينة عربية فى الجنوب تسمى «الشحْر» . وحصيلة التعرف على مضمون هذه المؤلفات يكْمِل بيان خصائص الملاحة عند العرب بالمقدار الذى تحل به المشكلات القائمة فى الأعمال الفريدة المحفوظة . المؤلَّفان الأولان عبارة عن رسالتين تحمل الأولى اسم (رسالة قلادة الشموس فى استخراج قواعد الأسوس »

وتنقسم إلى ستة فصول : ١ — أس السنة القمرية ٢ — أس السنة الشمسية ٣ — السنة الشمسية ٤ — السنة الرومية ٥ — السنة القبطية ٦ — السنة الفارسية .

وتحمل الثانية اسم «رسالة (شرح) تحفة الفحول فى تمهيد الأصول» (٦٤). وتنقسم إلى سبعة أبواب : ١ الأفلاك والكواكب ٣ — تجزئة الدورة (أى تقسيم القبة السماوية إلى ٣٢ خنا مثل التقسيم البحرى) ٣ — فى الأزوام ٤ — فى الديرة وبيان أصولها وهى على قسمين : ديرة ملى وديرة لمطلق (أى البحار بمحاذاة الشاطىء وفى عرض البحر ٥ — فى القياس ٦ — فى المسافة ٧ — فى الأرياح .

وتحوى هذه الوثيقة القواعد العامة التى تنص على أن فن الملاحة البحرية يقوم على أساس مزدوج : التفكير السليم والتجربة . وكذلك نجد أن المؤلف الثالث وهو كتاب العمدة المهربة فى ضبط العلوم البحرية » (٦٥) يحتوى على سبعة أبواب أيضاً هى :

١ — فى معرفة الأصول (أى أسس الفلك البحرى) .
٢ — فى معرفة أسماء الكواكب .
٣ — فى معرفة دير فوق الريح وتحت الريح .
٤ — فى معرفة الجزر ودبرهن .
٥ — فى معرفة القياس على البزارى المشهورة .
٦ — فى معرفة المواسم (أى الرياح الموسمية فى المحيط الهندى الشرقية منها والغربية (٦٧) .
٧ — فى الأسفار (أى الطرق من جدة إلى السند ودابول فى غرب الهند)

والمؤلف الرابع هو كتاب « المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر . ويحتوى على وصف :

١ — الديرة (أى الطرق فى حوض المحيط الهندى)
٢ — القياس على البرور المشهورة .
٣ — الجزر للكبار المعمورة .
٤ — المسافات (من الجزيرة إلى الهند ومن أفريقيا إلى أندونيسيا) .
٥ — الرياح والمحذورات .
٦ — علامات قرب البرور (شواطىء الجزيرة العربية وأفريقيا والهند
٧ — حلول الشمس والقمر فى البروج والمنازل .

أما المؤلف الخامس والأخير فهو بعنوان كتاب شرح تحفة الفحول فى تمهيد الأصول ، وهو عبارة عن تعليقات على المؤلف الثانى مع إدخال بعض الزيادات الملحوظة عليه . وأبوابه السبع تحمل العناوين الآتية :

١ — فى صفة الأفلاك والكواكب ٢ — فى صفة تجزئة الدورة ٣ — فى بيان حد الزام ٤ — فى بيان أصول الدير ٥ — فى القياس (أى قياس ارتفاع الكواكب) ٦ — فى حكم أصول المسافات ٧ — فى الرياح (أى نظام الرياح البحرية) .

وفى هذا المؤلف احتفظ بنفس موضوعات المؤلف الثانى مرتبة بالتسلسل مع توسيع وتغيير نسبى فى المحتوى كما سبق أن ذكرنا .

وتعتبر أعمال ابن ماجد وسليمان المهرى — كما يشير كراتشكوفسكى « آخر قبس من الأعمال العربية الجديدة فى ميدان الجغرافيا » (الجغرافيا العربية والرحالة ص ٧٦٠) . وخلفهم بعد هذا الأتراك والبرتغاليون. لكن على كل حال فإن نتاج تأليف هذين الملاحين بقى على وجه العموم دون تغيير أساسى حتى بعد ظهور « المحيط » وهى الموسوعة البحرية التركية فى القرن السادس عشر (٦٨) . ومؤلفها «شلبى» أمير البحر اعتمد أساساً على المصادر العربية بل إن تركيبها وبناءها كله واقع تحت التأثير العربى ولا يقلل من هذه الحقيقة وجود بعض الأسماء والمفاهيم الجديدة . فهناك عشرة فصول من المحيط تحمل مثل هذه العناوين :

١ — السماء والنجوم والإتجاهات الجغرافية ، وتقسيم قبة السماء .
٢ — أسس التقويم الشمسى والقمرى والسنة القبطية والرومية والفارسية .
٣ — أخنان الحقة أو تقسيم بيت الإبرة .
٤ — الطرق فى المحيط الهندى وفى اتجاه أمريكا .
٥ — استكشاف أو رصد النجوم وحسابها والمصطلحات الفنية البحرية .
٦ — تحديد أماكن الموانى والجزر بواسطة النجوم وقياس ارتفاعها .
٧ — المسافات بين الموانىء المختلفة وطرق ايجادها ومعنى الزام (٦٩) .
٨ — الرياح الموسمية .
٩ — ثلاثون مسلكا فى المحيط الهندى .
١٠ — الأعاصير والزوابع والعواصف والرياح الشديدة والأخطار الأخرى التى تحيق بركاب البحر .

وهكذا من خلال هذا الغطاء الرقيق لبعض التجديدات الخارجية فى العناوين والنص(٧٠) تظهر طريقة التلخيص الدقيقة الموروثة عن كتابات ابن ماجد وزميل مهنته الأصغر .

وتتضح هذه الطريقة أيضاً فى مجموعة القرن السادس عشر Reteiros البرتغالية والتى بها الكثير من الأخطاء فى النقل عن الأراجين العربية(٧١). وقد جاء ذلك نتيجة لمسميات ومصطلحات علم الطبوغرافيا(٧٢) ، ونتيجة لاستيعاب المعلومات العامة عن علم الملاحة فى المحيط الهندى وبخاصة فى جزئه الشمالى(٧٣).ومن الواضح تسلسل الخط التاريخى: فالمؤلفات البحرية العربية ظهرت على أساس الاستيعاب الممحص لنظام الـ « راه نامك » الإيرانى . والمصطلحات فى بعض مؤلفات الجغرافيا العربية مثل « كتاب المسالك » تعكس أفكار « راه نامك » الإيرانية . وكذلك كانت هذه المؤلفات بدورها نقطة الأنطلاق للمؤلفات البرتغالية عن الطرق البحرية

التى تطورت وأدخلت على النظام التقليدى كثيراً من المضامين والمحتويات المستقلة .

— ٤ —

إن حصيلة المعلومات الموجودة تحت تصرف العلم والخاصة بالتعرف الأولى مع نصوص ابن ماجد تحمل طابعاً ساطعا متعدد الجوانب .

ففى أول مخطوط رقم ٢٢٩٢ وهو أكثرها تشبعاً بالطابع العام يرد الاسم الكامل للملاح وهو شهاب الدين(٧٤) أحمد بن ماجد بن عمر بن فضل ابن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبى معلق السعدى بن أبى الركائب النجدى . والنسب الأخير يشير إلى أصله العربى فى الشمال . وهو يسمى بالرحالة المتعبد الذى يصلى للمدينتين المنورتين مكة والمدينة(٧٥) . ويسمى أيضاً بالمعلم العربى، ورابع أسود البحر الثلاثة(٧٦). وخليفتهم الوحيد (ص ص ١١٧ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٦٥) .

ومن المحتمل فى المقطوعة التالية أنه أعطاها أصلا بحرياً أسطورياً وهى تحتوى على معلومات نادرة عن طابع أعمال الملاحين العرب القدامى ومن خلفهم يقول ص ٣ ب : « فلما استوت السفينة وتعلمت الناس صنعت السفن على جميع سواحل البحر فى جميع الأقاليم التى قسمها بين أولاده يافث وسام وحام وهو آدم الثانى (٧٧) فصار كل يعمل السفن فى البحريات والخلجان وأطراف البحر المحيط حتى انتهت الدنيا لعضر بنى العباس وكان استقامة ملكهم ببغداد وهى عراق العرب وكان خراسان (٧٩) جمعيه لهم والطريق من خراسان لبغداد بعيدة مسيرة ثلاثة أشهر أو أربعة » .

« وفى ذلك العصر الثلاثة الرجال المشهورين محمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان ما هو ابن كاملان وقد رأيت ذلك بخط ولد ولده (٨٠) فى رهمانى (راه نامك) (٨١) تاريخه خمسمايه وثمانين سنة (٨٢) فاعتنوا بتأليف هذا الرهمانى الذى أوله إنا فتحنا لك ولم يكن فيه أرجوزه

ولا قيد إلا فى كتاب ملفق لاله آخر ولا له صحة يزاد فيه وينقص وهم مؤلفون لامصنفون (٨٣) ولم يركبوا البحر (٨٤) إلا من « سيراف » إلى بر « مكران » وطلعوا من سيراف إلى مكران سبعة أيام ومن مكران إلى خراسان شهراً واحدا فاستقربوا الطريق وهى مسيرة ثلاثة أشهر (٨٥) من بغداد وصاروا يسألون عن كل بر أهله ويؤرخونه » . (٨٦)

« وكان فى زمانهم من المعالمة المشهورين عبد العزيز بن احمد المغربى وموسى القندانى وميمون بن خليل وألف قبلهم احمد بن تبرويه وأخذوا من مؤلفاته وأخذوا الوصف من المعلم خواشير بن يوسف بن صلاح الأركى وكان ويسافر فى عام أربعمائه من الهجرة النبوية (٨٧) وما قارب منها فى مركب دبوكرة الهندى » . (٨٨)

«وكان فى عصرهم من النواخيذ المشهورة احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن أبو الفضل بن أبو المغيرى . وكان أكثر علمهم فى صفات البرور وسايرات البرور وأكثرها من تحت الريح (٨٩) وبر الصين » .

« وقد اندرست تلك البنادر والمدن وتنكرت أسماؤها ولم يستفيد فى زماننا هذا ، شيئا له صحة كعلومنا وتجاربنا واختراعاتنا التى فى كتابنا هذا[1] لأنها مصححة مجربة » .

« وليس على التجريب شىء منه ونهاية المتقدم بداية المتأخر وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدرهم رحمة الله عليهم بقولنا « إنا رابع الثلاثة» ور ا فى العلم الذى اخترعناه فى البحر ورقة واحدة تفقيم فى البلاغة والصحة والفايدة والهداية والدلالة بأكثر مما صنفوه . . .

وفى ص ٤ ب يقول : « فأخذوا هؤلاء الثلاثة الوصف والقوة من

---

(١) يقصد كتاب القوائد فى أصول علم البحر والقواعد

هؤلاء المذكورين وغيرهم فيأخذون من كل أحد معرفة بره وبحره ويؤرخونه وهم مؤلفون لا مجربون ولم أعلم لهم رابعا غيرى وقد وقرتهم بقولى إنى رابعهم لتقدمهم فى الهجرة فقط وسيأتى بعد موتى زمان ورجال يعرفون لكل أحد منا منزلته » .

« ولما اطلعت على تأليفهم ورأيته ضعيفاً بغير قيد ولا صحة بالكلية ولا تهذيب هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التى اخترعتها وصححتها وجربتها عاماً بعد عام فى نظم الأراجير والقصائد وفى هذا الكتاب عام ثمانين وثمانماية (٩٠) فاستحسنوه الماهرون من أهل هذا الفن وعملوا به واعتمدوا عليه فى شدايدهم مثل رؤيا الجبال ومثل القياسات وأسماء النجوم ومعرفتها والهداية عليها » .

« ولم يعلموا[1] أهل زمانى على ما ألفوه القدما (القدماء) إلا قليلا مثل الدير الصحيحة والترفات الرحوبات (٩١) وأما الشقاقات « فلا وقد ذكرناها فى شرح الذهبية (٩٢) وسنذكرها فى غير هذا المكان » .

« وفى الحقيقة إن الناس كانوا فى الزمان الأول اكثر حزما ولا يركبون البحر إلا بأهله من شدة الحزم والخوف والحذر من البحر (٩٣) ويعدون[2] للمركب اعتداداً جيداً ولا يؤخرون الموسم ولا يشحنون المركب غير العاده ونحن اكثر منهم علما وتجربة » .

« وكل فن من فنون البحر له أصل . فأصل السفينة ذكرناها إنه من نوح عليه السلام وأما المغناطيس (٩٤) الذى عليه المعتمد ولا تتم هذه الصنعه إلا به وهو دليل على القطبين فهذا استخراج داود عليه السلام

---

(١) فى الأصل يعلمون (٢) فى الأصل ويعدوا

وهو الحجر الذى قتل به داود جالوت وأما منازل القمر وبروجه تصنيف دانيال عليه السلام وزاد فى ذلك الطوسى (٩٥) رحمه الله تعالى» .

« . . . رجعنا للبحث الأول وأما نجوم أخنان الحقه (٩٦) وأسماؤها[١] هو تصنيف قديم قبل اللبوث المتقدم ذكرهم رحمة الله عليهم وهى تقريبية وأزوامها (٩٧) تقريبية لا حقيقية وكذلك صفات البرور التى جريناها وحررناها ودلنا على ذلك كثرة التجربة ، وصفة البرور ومررنا عليها أحسن من تصنفهم » .

« وأما ضرب بيت الابرة بالمغناطيس قيل إنها من داود عليه السلام لما خرج فى طلب ماء الحياه ودخل الظلمة وبحوه ومال لأحد الأقطاب حتى غابت عنه الشمس قيل اهتدى بالمغناطيس وقيل اهتدى بالنور ، والمغناطيس حجر يجذب الحديد نقط والمغناطيس كل شىء ما جذبه إليه وقيل إن السبع سماوات [٢] والأرض معلقات بمغناطيس القدرة وقال الناس فى ذلك أقوالا [٣] كثيرة وقيل إنها من داود عليه السلام وقيل إنها من الخضر والاسكندر » (١٠٠)

« وأصل القياس من أسطرلاب ادريس عليه السلام وهو مصنف الأسطرلاب للدرج فجعلوا الدرج أصابع وقد ذكروه فى قصة مدينة النحاس وقد رتبوه غير الثلاثة محمد بن شاذان وأصحابه لأن المركب يسافر فى البحر الكبير (١٠١) بالقياس من عصر الأنبياء عليهم السلام وهؤلاء [٤] الثلاثة جاءوا [٥] على عصر العباسية وهذا النقل من تواريخهم بخط أيديهم » .

وإن ابن ماجد — والحق يلح فى تأكيد خدماته — يتجه إلى حكم أجيال المستقبل مؤملا العدل فى مزيد من التقدير لأعماله .

---

(١) فى الأصل أسمايها (٢) فى الأصل السماوات (٣) فى الأصل أقوال
(٤) فى الاصل هولا (٥) فى الأصل جاوا

وهو على حق يعتبر أن مبدأ تتابع الأحداث هو العامل الوحيد الذى يضعه فى المركز الرابع من الصف اللامع لبناة علم الملاحة العربية . وإن أعماله القائمة على التجربة من البداية إلى النهاية والسائرة من الناحية العملية إلى النظرية تفتح أفقاً جديداً لتطور المعلومات الجغرافية فى الشرق . وهى إحدى الاتجاهات الأولى فى التطور التى اكتملت فى عصر الفتوحات العظمى . ودونما كلل من الحديث عن الجديد وضع ابن ماجد مسألة زيادة معلوماته باستمرار فوق كل شىء . وتوضح أوصافه لجميع الأجزاء المهمة من المحيط الهندى أنه كان سيد الموقف (١٠٢) . وعلى مر السنين كان من غير المعقول ألا يعتبر أول ممثلى حضارة العصور الوسطى للشرق التى بدأت فى الانطفاء . وكان ابن ماجد يحترم من بين ملاحى عصره الممثلين الأولين لعائلته وهما أبوه ماجد بن محمد وجده محمد بن عمر . وكانا ملاحين فى البحر الأحمر ومؤلفى أرجوزات بحرية . بل إن ابن ماجد فى كبره كان يؤمن بمعلوماتهم بدرجة أكثر من إيمانه بمعلوماته الحديثة نفسها وهو نفسه يشير فى كلامه إلى أن ماتركه والده من وصف للطرق البحرية فى البحر الأحمر هى أحسن ما ورثه عنه .

ص ٧٨ أ ، ولم يذكر شيئا عن بحر القلزم قلزم العرب (١٠٣) فيجب أن نذكره إن فيه نوادر وحكم لم يذكرها إلا من جربها لأنه على طريق الحجاج وقد كان جدى عليه الرحمة محققا فيه ومدققا ولم يقر لأحد فيه وزاد عليه الوالد رحمة الله عليه بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم أبيه . فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريباً من أربعين سنة وقد حررنا وقررنا علم الرجلين النادرين وأرخناه[1] وجميع ماجربناه وأرخناه انكشف لنا عن أشياء[2] وحكم لم يجمعها فى زماننا شخص واحد[3] إلا أن يكون عنده شخوص متفرقة . فنخاف أن يدركنا الموت ونوادر الحكم فى القلوب ولاشك أن

---

(١) فى الأصل « وورخناه » . (٢) فى الأصل « أشيا » (٣) فى الأصل شخصاً واحداً .

مايعلم لا يقال جميعه فسنذكر على ماهو الطريق بالاختصار ليترقى به الطالب ونستغفر الله تعالى من الزيادة والنقصان » .

« وكان الوالد عليه الرحمة يسمونه الربابين ربان البرّين ونظم الأرجوزة المشهورة « بالحجازية » فوق ألف بيت ومع ذلك كله قد أصلحنا له منها مارأينا فيه الخلل ورتبنا مالم يكن فيها » (١٠٤) .

ويتبين من تحليل الموضوعات أن ابن ماجد كان إلى جانب انجذابه إلى البحث العلمى ذا معرفة وإطلاعاً واسعاً فى ميادين غير تخصصية . وكانت معرفته العامة واسعة جداً . وكان يقف فى المستوى التقليدى المطلوب من المتعلم العربى . وعن هذا تتكلم الأسماء والمؤلفات التى يسيطر عليها . ففى أحد الفصول يذكر خمسة عشر شاعراً معروفاً فى عصر ماقبل وبعد الإسلام من بينهم امرىء القيس ومهلهل بن ربيعة وعنترة بن شداد وعمر بن أبى ربيعة المخزومى وأبى الحسن بن هانىء . وكان يعرف الأديب صاحب النظريات الأسلوبية الجديدة ، والخليفة ليوم واحد أبا العباس عبدالله بن المعتز الذى قتل عام ٩٠٨م . ومن مؤلفات العلماء يذكر « التصاوير » وهو كتاب الفلكى عبد الرحمن بن عمر أبى الحسن الصوفى (٩٠٣ — ٩٨٦م) وتقويم البلدان لأبى الفدا (١٢٧٣ — ١٣٣١) وكتاب « زيج الغبيك» أى مختصر الجداول الفلكية لأولوغ بك بن شاخروه « شارخ » بن تيمورلنك (١٤٤٩) حفيد تامرلان (١٥٠) . وكذلك كتاب « المجسطى » لبطليموس وترجمته العربية فى عصر المأمون وأيضاً الأعمال الرئيسية لأبى حنيفة الدنيورى (٨٩٥) ، والموصلى (٩٥٥) وابن حوقل (٩٧٧) . ويعتمد على كتاب «جمهرة الأمثال» لأبى هلال العسكرى (١٠٠٥) وكتاب (المشترك) لشهاب الدين الياقوتى (١١٧٩ — ١٢٢٩) . كذلك يرجع إلى الكتاب النادر « البطل العربى » للشاعر أبى القاسم الفردوسى (٩٣٤ — ١٠٢١) .

وكل هذا يوضح المطالب العالية التى وضعها ابن ماجد لنفسه كإنسان خرج بعيداً عن الإطار الضيق لمطالب مهنته .

—٥—

والمعلومات التى فى المخطوطات ٢٢٩٢ ، ٢٥٥٩ وفى مخطوطنا ٩٩٢— B وكذلك فى بعض المصادر الأخرى المقارنة تسمح لنا بتصور الملاح العامة لصورة الأعمال الفنية للملاحين العرب فى البحر .

وكان لبعض المعلمين سفنهم الخاصة لكن الأغلبية كانت تعتمد على تأجير السفن من مالكيها الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الحية بين مختلف شواطىء المحيط الهندى . وكانت أنواع التجارة عبارة عن الحرير والأطلس والأقمشة القطنية واللؤلؤ وأنواع الصينى وأنواع أخرى من الأخشاب وسن الفيل والحلوى .

وغالباً ما كان ضمن هذه التجارة تجارة الرقيق وبخاصة من الشواطىء الشرقية لأفريقيا والجزر المجاورة . وكان الملاح يؤجر لرحلة واحدة وعندما ينتهى منها يوصل السفينة إلى المكان المحدد ويرجعها إلى الميناء الذى رحل منه وكان فى استطاعته أن يتعامل مع صاحب سفينة أخرى .

وكان الملاح كبقية طاقم السفينة يأخذ عن عمله أجراً غير ثابت ، وكان حجم الأجر يعتمد على المكان وطول المدة التى سيقضيها فى الرحلة. وبهذا الخصوص توجد لدينا معلومات من القرن ١٦ تتعلق بالأجر فى مياه المحيط الهندى . فمثلا فى تشيتاجون كان الملاح يمنح عن كل الوقت الذى يمكثه ٢٠٠ روبية وفى لاهور ١٥٠ روبية. أما فى أتشين فكان أجره يصل إلى ٣٠٠ روبية وفى كامباية وملاقة ٤٠٠ روبية . أما فى الأجزاء الخاضعة للبرتغاليين فكان يمنح ٥٠٠ روبية وفى «بيج» «وتيناسريم» ٦٠٠ روبية. وإلى جانب هذا كان له على السفينة التصرف فى قرتين فكان فى استطاعته تأجيرها للمسافرين أو شغلها ببضائعه الخاصة . وكان الملاح برياسته لطاقم السفينة يمنح أكبر أجر من أجور أفراد الطاقم . وكانت أحجام الأجور تتناسب مع الأثنى

عشرة درجة لطاقم السفينة . فآخرها هى الدرجة الثانية عشرة وهم البحارة وكانوا يمنحون فى الموانى المذكورة أجراً يتراوح مابين ٣٠، ١٢٠ روبية(١٠٦) .

والمقالة الخاصة بقوانين البحر ومطالب الرحلة التى كتبها ابن ماجد نفسه والتى سقناها فى بداية هذا الفصل تدل على كل الالتزامات والمسئولية الملقاة على عمل المعلم الذى لم يكن لديه من الحقوق ما يتكافأ مع ماعليه من واجبات .

والربان وهو فى نفس الوقت « القبطان » كان عليه قبل الرحيل من الميناء أن يختار ويجمع الطاقم الكفء ويتأكد من سلامة السفينة من جميع الجوانب وألا يسمح بشحن المركب أكثر من اللازم أو غير العادة . وكان يأخذ معه فى الرحلة ستة أشياء : خريطة للطريق (راه نامك) ؛ وبوصلة أو حُقّة ؛ والآلات التى تحدد ارتفاع النجوم « أدوات القياس » والأشياء التى تمكنه من تحديد خطوط العرض الجغرافية ؛ وحجر يستخدم فى الصيد (ثقل يوضع فى الشباك أو فى سنانير الصيد) ؛ وآلة لقياس عمق المياه « بُلد » ؛ وفانوساً لإعطاء الإشارات . أما ساعة الإبحار فكان يحددها المعلم حسب النظام البحرى للمكان وحسب الأحوال الجوية . وعندما تشحن البضائع فى الميعاد الذى يحدده لها ويركب الركاب وأولهم صاحب السفينة ، كان الربان آخر من يصعد على ظهرها ويأمر برفع المرساة . وقبل الخروج إلى عرض البحر المفتوح كانت تقرأ سورة الفاتحة بصوت مسموع ثم يتلوها دعاء بأن يسمعها الخِضْر حاكم أشعار البحر وحامى المسافرين .

ولم يكن هناك معلم واحد يعتبر أن من حقه الإيمان الأعمى بالراه نامك(١٠٧) . فبواسطة الشمس وتحركات السحب نهاراً وأوضاع النجوم ليلاً كان يحدد مكان السفينة ويوجهها إلى الجهة المطلوبة . وإلى جانب هذا

كانت تجرى قياسات عمق المياه وملاحظة الأحوال الجوية . وعلى أساس المعلومات التى يحصل عليها يدخل على الخريطة تعديلات وزيادات. وكانت اتجاهات التيارات تحدد بواسطة حفنة من الرماد ترمى على سطح الماء . وكان اللوح القائم خلف مؤخرة السفينة يسمح بمعرفة سرعة تحرك السفينة على وجه التقريب

وبواسطة الوقوف والظهر للشمس حسب زاوية معينة مع تحريك يد ممدودة ممسكة بقطعة خشب ذات علامات كان من الممكن معرفة ارتفاع الشمس . ولكن إذا كانت الطرق البحرية معروفة جيداً للملاحين العرب فإنهم كانوا يفضلون الإبحار ليلا تجنباً لقسوة الحر فى المنطقة الإستوائية. وكان جهاز قياس ارتفاع النجوم من أسرع الأجهزة المتطورة إلى الكمال لديهم وكان أكثرها شيوعاً جهاز « الكمال » . وهو عبارة عن مستطيل من القرون مقاس ٩ × ١٥سم وله شريط ذو تسع عقد وعند استعمال « الكمال » يمسك الشريط من نهاية بواسطة الأسنان ويوضع المستطيل أمام العينين بحيث يمس أفق البحر بطرفه السفلى ويمس الطرف العلوى النجم المطلوب . والعقدة التى يتقاطع فيها خطا الأفق والنجم تشير إلى الارتفاع و« الكمال » الدقيق يسمى بالبليستى(١٠٨) وفيه يحتل مكان الشريط ذى العقد فرع رفيع من الأبنوس .

ويقدم سيدى على شلبى وصفاً لجهاز آخر لقياس النجوم يتكون من تسعة ألواح مختلفة فى شريط . كل منها مقسم إلى تقسيمات ما بين أربع على اللوح الأول إلى اثنتى عشرة على اللوح التاسع وأكبرها يتفق مع الأصابع أو الدرجات .

وكان لابن ماجد معرفة بالاسطرلاب المقسم إلى درجات (أصابع) ويعتقد أن مخترعها النبى أدريس أو ابنه لاب (١٠٩) . وعندما تكون

السماء ملبدة بالغيوم كانت تستخدم البوصلة (الحقة أو الدبرة) (١١٠) . وفى قاعها أو أساسها ترقد « وردة الريح » ولها ٣٢ خنا (١١١) وكانوا يعتبرون أن الإبرة المغناطيسية تشير إلى الجنوب (١١٢) .

وتراجع قراءة الأجهزة مع ماهو مكتوب فى الخريطة . وهذه الأخيرة فى شكلها الأساسى عبارة عن تنظيم ذى تقسيمات وعلى رأسه تقف الإشارات إلى عدد الأصابع بين الأفق وهذا النجم أو ذاك مرتبة حسب الزيادة والنقصان وموضح تحت هذه الأعداد مايطابقها من الأماكن . ويتم مراجعة ذلك عملياً بمقارنة المعطيات عن الأعماق محسوبة بالباع أو القامة عن المسافات التى فيها وحدة القياس عبارة عن ثلاث مسافات من السير البحرى (الزام) . ويحدد الربان اقترابه من الأرض بعدة مظاهر أو علائم : سقوط المطر ، وظهور الطيور وأسماك المياه العذبة والأغصان العائمة ونقصان عمق المياه وتغير لونها بالتدريج من الماء الأخضر إلى الماء الأبيض .

وأول من يرى الأرض هو البانجارى الذى يوجد بأعلى الصارى وعليه ملاحظة الأفق وإخبار الربان بما يلاحظه . وبالدخول إلى الأجزاء غير العميقة القريبة من الشاطىء كان يتأتى الحذر بخاصة من الطحالب أو المراء والشعب والطخلة والعرق أو ارتفاع القاع حيث كان على الربان أن يسير فى مجال ضيق بخطوط متعرجة ضد الريح مع طى القلاع . وأخيراً ترسوا السفينة عن الشاطىء بواسطة المرسية . وكانت القلاع تطوى وتسير المراكب الصغيرة (السنابيق) للتعرف والاستطلاع الأولى . وعند الحصول على المعلومات المطلوبة تبدأ السفينة فى الاقتراب رويداً رويداً وتفرغ حمولتها وتنتظر العمليات التجارية النهائية . وبعد شحن السفينة بالبضائع الجديدة تبحر مع الرياح الموسمية المنعشة إلى الميناء المجاور أو ترجع ثانية من حيث أتت . ولم يكن الإبحار بجوار الشاطىء ليخفف من عمل الربان . فالحذر من المناطق غير العميقة والارتفاعات

والدوامات كانت تتطلب فناً كبيراً يجمع بين رباطة الجأش والقدرة على الخروج من المآزق والمواقف الصعبة إلى جانب قدرته على الحسم وتوفر المعلومات العامة عن الحوض الذى يبحر فيه .

وقد احتفظت النماذج الأثرية للقرن الثالث عشر برسومات لأشكال السفن العربية . وعند النظر إلى هذه السفن التى تبدو من وجهة النظر الحديثة غير متينة وبعيدة جداً عن الكمال ، فإنه لا يمكن ألا نندهش ونتحير من أنها تمخر عباب المحيط وتصمد أمام الصعاب المختلفة وتنتصر عليها . ولا يمكن شرح وتفسير هذه المهارة إلا بارتفاع المستوى الفنى للأعمال البحرية التى بدأت تطورها فى الشرق منذ أيام الانجيل . وعن هذا الجانب تتكلم بوضوح المصادر التى ترسم خطوط الرحلات الكبرى فى المحيط فى العصور العربية الوسطى .

إيضاحات المخطوط اللينينجرادى

التكوين

فى مجموعة المخطط رقم ٩٩٢ — B يقدم ابن ماجد ثلاث منظومات عن وصف الطرق البحرية . الأولى والثانية على وزن الرجز (ومن هنا ظهر الاسم العربى أرجوزة والجمع أراجيز) ، والثالثة من بحر الطويل . ومن ناحية الحجم هناك تباين كبير بينها فأول منظومة (ص ص ١٨٣ ا — ١٩٦ ا) تحوى ٨٠٥ بيتا والثانية (ص ص ٩٧ ب — ١١٠٤ ا) ٢٧٣ بيتا والثالثة (ص ص ١٠٤ب — ١٠٥ ب) ٥٤ بيتا فقط . وإلى جانب هذا نجد أن بين الأرجوزة الأولى والثانية على الصفحتين (٩٦ ب — ٩٧ ا) بيتين شعريين مضمونهما دينى هادف يرجعا إلى الشيخ أبى بكر بن عبد الله العيدروس(١١٣) . وكل بيت شعر فيهما يتحد شطراه وله قافيته الخاصة . وعلى هذا فالوحدة الشعرية هنا هى البيت بشطريه . وفى المنظومة الثالثة

يختلف النظام ونجد سلسلة من القوافى : التاء (بيت واحد) ، الهاء (١٤ بيتا)، تى (ة + ى ٣٨ بيتا) . وهذه القافية الأخيرة تنتشر فى الإنتاج كله وتعطيه اسماً شكلياً « الأرجوزة (هكذا) التائية » .

والنص الشعرى الأساسى يبدأ على الفور بعد المقدمة . وهى مكتوبة بالنثر وهنا أيضاً لاتناسق فى حجمها : فالمقدمة رقم ١ تسعة سطور ورقم ٢ سبعة ورقم ٣ أربعة سطور) . وكل سطر من النص عبارة عن شطرتى بيت شعر عادى . وأحياناً تظهر علامات التقسيم بين الشطرتين فى شكل خط منعرج . ولهذه العلامات فى الأرجوزة الأولى نفس اللون (الأسود) الذى للنص إلا أنها لاتستخدم إلا فى ثلث صفحة ٨٤ ب (السبعة أسطر الأولى) من الأبيات الاثنين وعشرين التى فى الصفحة . وفى الأرجوزة الثانية تستخدم هذه التقسيمات فى تشطير ست صفحات من أربع عشرة صفحة (ص ٩٧ب ، ٩٨ ا ، ٩٨ب ، ٩٩ ا ، ٩٩ ب ، ١٠٠ ا) أما فى المنظومة الثالثة فلا توجد هذه التقسيمات . وإلى جانب هذا فى أول خمس علامات تقسيم من علامات الصفحات الست لنص الأرجوزة الثانية نجد أن نهاية الأشعار مزينة بخطوط مقلوبة . وعدد الأشعار فى كل صفحة غير متساو بالمرة : ففى أول مقطوعة يتراوح العدد بين ٢٢ بيتا (ص ٨٤ ب) إلى ٣٦ بيتا (ص ٩٣ ب) . وفى الصفحتين قبل الأخيرة يزيد العدد إلى ٤٢ بيتا (ص ٩٥ ا حتى ٤٨ بيتا ص ٩٥ ب . والعكس فى المقطوعة والقصيدة الثانية فالفروق تكاد تكون غير ملحوظة . فهناك من ١٩ بيتا (ص ١٠١ ا . ١٠٢ ا ، ١٠٣ ا) حتى ٢١ بيتا (ص ٩٩ ب ، ١٠٠ ب ، ١٠٤ ا) .

وينطبق ذلك أيضاً على المقطوعة الثالثة . وعلى بعض الصفحات (٨٩ب ، ٩٣ ب ، ٩٥ ا ، ٩٥ب ، ٩٦ ا ، ١٠٤ ا) إضافات شعرية تبدو لأول وهلة أنها فى صلب النص الرئيسى . وعلى كل حال فأهم مافى هذه الإضافات هو فى ص ٩٥ ب حيث يوجد ١٧ بيتا . وهناك دليل للحكم على أن هذه الإضافة

لابد وأن تتلو مباشرة النص الرئيسى فى ص ١٩٥ وأن تسبق النص على الصفحة التالية .

ووجود هذه الإضافات لا يفسر بثنائية تحرير المخطوط كما يبدو لأول وهلة وإنما يمكن تفسيره بعملية أبسط من هذ هى الهدف فى توفير الأوراق التى لم تكن فى ميسور ناقل المخطوط على مايبدو . وهذا واضح من أن مثل هذه الإضافات توجد حيثما يبدو أنها تتبع فى البناء الفكرى آخر أشعار الصفحة لا منتصفها على الإطلاق .

الكتابة

نقلت هذه الأراجيز الثلاثة كلها بخط واحد على خلاف الجزء الموجود تحت رقم ١ من منتصف ص ٨٦ ب حتى آخر ص ٨٨ ا (الأبيات ١٧٨ — ٢٨٠) فهو مكتوب بخط آخر يختلف فى كتابته للحروف بحيث تبدو جميلة فى رفعها والتواثها . ومن هنا يتضح أنها مكتوبه بقلم مغاير ، له سن محكم فى وضعه للنقاط والعلامات بإتقان ونظام . ووجود خط غريب وسط نص المخطوط هى ظاهرة نادرة الحدوث فى كتابة المخطوطات العربية . ويمكن فى هذه الحالة أن يكون الخط الأصلى أو الرئيسى لناقل المخطوط « المعلم » ، والمقطوعة (ص ص ٨٦ ب — ٨٨ ا) هى بخط تلميذه . والدليل على ذلك هو خواص الكتابة ذاتها : فعند الشخص حديث السن ، عادة مايكون خطه مثقلا بالخطوط الزائدة والعلامات المختلفة . فى حين أن الشخص كبير السن عادة مايكتب الخطوط بسهولة ويسر دونما تعقيدات . وعلى هذا يمكن تفسير ظهور خط التلميذ فى منتصف مخطوط الأستاذ على النحو التالى: أن الأخير أى الأستاذ أراد أن يعطى الفرصة لتلميذه كتجربة ولكن لعدم رضائه عن نتيجة هذه التجربة (ربما لأن النقل بخط واع يتطلب وقتاً كبيراً من الزمن) . كان عليه أن يقوم بنقل المخطوط بنفسه . وخط

الأستاذ نفسه غير متجانس . ويبدو أنه عندما كان يكتب بيال هادىء أو عندما كان يعمل فترة قليلة من الوقت وعنده ما يكفية من الورق فإن قلمه كان يتحرك بتأن وهوادة متأنقاً فى كتابة الحروف بتماوج ودقة ووضوح . ولكن الناقل العجوز سرعان مايتعب ويصبح مشتتاً . فالحروف لاتفصل وإنما توضع حيثما اتفق ويصبح الخط على عجلة والتفاصيل مبسطة . وبالإضافة إلى ذلك إذا وجد أن الورقة لن تتسع فعندها تميل السطور ويقل حجمها وتضيق المسافات بينها وينتقل بعدها إلى الأجزاء الخالية فى المخطوط . ويبدو أن تحسين الخط بالنسبة له لم يكن شيئاً محبباً فهو يتعجل إتمام هذا العمل. ومع هذه العجلة يزداد تشتيتا : ففى الصفحات المكتوبة بالخط الأساسى أو الأصلى ٤١ مكانا مشطوباً يعلوها التصحيح ، والأخطاء تمتد إلى الحروف وبعض الكلمات المنفردة بل وبعض العبارات أو الجمل(١١٤) . وفى حالة أخطاء الكلمات المنفردة قد توجد حروف زائدة أو ناقصة(١١٥) .أما أخطاء القطعة عامة فأكثرها تمييزاً ووضوحاً هو كما يبدو نتيجة لقلة الإلمام بالمادة العلمية(١١٦). أما الأخطاء النحوية فهى فى الواقع نادرة أو بالصدفة(١١٧). والنقاط والعلامات موضوعة تقريبا فى كل الأماكن إلا أنه أحيانا مايكون وضع النقط غير محدد بحيث يلغز المضمون(١١٨) ، ويصعب فهم الكلمات الأجنبية المتخصصة . ومن النادر جداً فى التشكيل حسب القاعدة العامة أن يظهر على الهمزة المتطرفة أو تنوين الفتح — إلا عندما يكون المطلوب تحديد وزن الشعر .ويترتب على عدم وجود هذا التشكيل فى بعض الحالات تصور خاطىء يصعب التخلص منه(١٢٠) . والهمزة المتوسطة (ئ) تسهل بكتابتها ياء (ى) . والتشديد موجود بصورة كبيرة فى كتابة القطعة . وإلى جانب وظيفته الأساسية يستخدم أيضا كعلامة لعدم وجود الثلاث نقط (كما فى س مثلا) وعدم وجود نقطة فوق الحرف يعرف بوجود نقطة تحت الحرف كما فى د = د) . والخط الرئيسى أو الأصلى لا يستخدم التشديد تقريبا إلا مع الحركات لتوضيح البحر والقافية ، أو لإبراز تصحيح حرف كتب خطأ .

أما الرسم غير المألوف للحروف فعند الانتقال إلى الكتابة السريعة أو تغيير الطريقة الملتوية إلى المستقيمة يتميز بالخواص التالية : أولا عدم الاتحاد مع الحرف التالى ، وأحيانا يخالف هذه القاعدة وينتج عن ذلك نوع جديد من الرموز . وثانيا : لا تكتب الهاء المتطرفة (ه) منفردة وإنما تشكل بانبعاج الحرف الأخير أو ثنيه . ثالثا تكتب التاء المربوطة (ة) بغير نقط (بصرف النظر عن بعض الحالات الموجودة فى المقطوعة الثالثة إذ أنها نهاية البيت رابعا : الياء المتطرفة (ى) تكتب أحيانا فى الاتجاه العكسى وفى كل الحالات التى استعمل فيها هذا الحرف تقريبا تكتب نقطتين تحتها حتى فى حالة الألف المقصورة . وفى هذه الحالة الأخيرة تستبدل أحيانا بالألف الممدودة (١٢٢). ونادرا ما يوجد العكس (١٢٣) .

اللغـــة

فى الأشعار الأخيرة الأجوزة الأولى (الأبيات ٧٩٢ — ٨٠٥ ص ١٩٦ و ١٧ — ٣٠) التى ترجع إلى الناقل أو كاتب المخطوط يقول إنه حفظها عن أحمد السعدى يعنى أحمد بن ماجد (يقول عن أحمد السعدى احفظنها ص ١٩٦ / س ١٧) ونظمها (ص ١٩) وأيضا عرفها فى حياة المؤلف الذى كان يسأله عنها (عرفتها حتى بقى ربانها يسألنى عنها وعن شعبانها) (هناك أيضا س ٢١)(*) . وعلينا ألا نتحرج من محاولته التظاهر بالاعتماد على ذاكرة غيوره (١٢٤) تبدو وكأنها على نقيض طبيعة أخطائه فى كل مراحل النقل عندما كانت بعض الكلمات والشطور تنقل ثم تشطب ثانية (ملحوظة أنظر ١١٤) .. وتشير هذه الظروف إلى أن الكتابة كانت عن طريق النظر لا عن طريق التفكير الواعى وأن الناقل كان

(*) هذا غير صحيح وقد جانب شومونفسكى الصواب عندما فهمها على هذا النحو وقد تكرر هذا الخطأ أيضا فى الترجمة الروسية لهذه الأبيات والواقع أن ابن ماجد يتكلم عن نفسه فى هذه الأبيات (المترجم) .

يقوم بهذه العملية آليا من مخطوط سابق لهذا كان موضوعا أمامه ونتيجة لشرود ذهنه كان أحيانا ما يخطىء السطور وهذا شيء معروف لنا . ولكن فى نفس الوقت ليست هناك تأكيدات ثابتة على أن ذلك المخطوط السابق تابع أو ملك له . بل العكس ، فإن تصريحه بعلاقته الشخصية مع المؤلف تمكننا من افتراض أنه سمع مشافهة روايات ذلك الملاح المشهور عن أحوال وظروف الملاحة فى مختلف الأماكن التى ذهب إليها طيلة حياته . وبعدها اقتنع برغبته فى تخليد هذه الروايات فى صورة شعرية على وزن الرجز تيسر من حفظه . والدليل على أن هذه الرغبة قد تحققت هو المخطوط القديم السابق الذى نقل عنه بعد موت ابن ماجد نسختنا هذه . وعن الممكن أن يكون هذا المخطوط أيضا قد مر دون أن يراجعه المؤلف . لكن المراجعة : تقتضى القدرة . وابن ماجد ليس كاتبا محترفا وإنما قبطان تجارب ولم تكن تهمه الصورة الأدبية . بل إن من المشكوك فيه أن يكون قد أوتى حظا كبيرا من المقدرة عليها . فى حين أن الجانب العلمى كان أقوى وكانت الحقائق تجذبه إليها وكانت صحة المضمون هى ما يهتم به . ومن هنا كان فى إمكانه أن يصحح كل معلومة تفصيلية تاركا أمر الصياغة أو الصورة الكتابية لناسخ المخطوط نفسه . ويؤكد هذا أن مقدمات الأراجيز الثلاث موضوعة بعد موت ابن ماجد وهى من تأليف الناسخ كلية وفيها نفس الأخطاء فى القواعد اللغوية الموجودة فى المضمون الشعرى الأصلى . وعلى هذا النحو نجد أن أمامنا الآن لغة واحدة لكل أجزاء المخطوط مع وجود مؤلفين أو ناسخين . من الصعب أن نقول أن ثانيهما ساعد فى تأليف الأرجوزة الأولى إذا نحن أخذنا فى الاعتبار ملاحظة عليها هى أنها تحوى ٧٠٠ بيت (هى سبع مائة بيت : ص ٩٦ أ س ١٧) . وهذا العدد على ما يبدو صحيح بالنسبة للنسخة الأولى وأشار إليه الناسخ تلقائيا فى النسخة الثانية . إلا أن قد غاب عنه أن فى هذه النسخة الأخيرة زاد العدد ١٠٥ أبيات من تأليفه نفسه . على أن الاختلاف

بين إشارة الناقل والأرجوزة نفسها فيما يتعلق بعدد الأبيات بعضد وجود مخطوط سابق للأرجوزة الأولى غير معروف لنا وربما كان ذلك لغير الأولى أيضا .

وبالنسبة لتطابق الأسماء مع الضمائر العائدة عليها فإن لغة الأراجيز لا تقيم وزنا كبيرا للتفرقة بينها . فبدل « ها » التى تشير إلى المفردة أو جمع المؤنث غير العاقل يستخدم أحيانا الضمير « هن » لجمع المؤنث العاقل بل وأحيانا « هم » (١٢٥) وإذا كان هذا الخروج عن القاعدة فى النص الأساسى يمكن أن يعزى بصعوبة بالطبع — إلى مطالب الوزن الشعرى فإن وجوده فى المقدمة النثرية يدل مباشرة على جهل ناسخ المخطوطات بالقواعد النحوية (١٢٦) . وقد يحدث أيضا أن يستخدم ضميران مختلفان لنفس الاسم (١٢٧) بل وقد يحدث هذا فى نفس السطر (١٢٨) ومن الغريب أن تكتب الكسرة فتحة على الاسم المجرور (١٢٩) .

وقد تحكمت مطالب الوزن الشعرى فى التركيب الداخلى الأشعار . ففى بعض الحالات اقتضى الأمر استعمال لغة مهنية مقتضبة (١٣٠) وعلى العكس من ذلك فى أحوال أخرى حيث اقتضت الضرورة التكملة بالاطناب والكلمات الزائدة (١٣١) . وفى هذين النمطين الأسلوبين يتجلى وجود مصدرين للغة الأرجوزة أولهما التجربة والخبرة العملية البحرية وثانيهما النظرية الأدبية . وهذه الخاصية الثانية هى أكثر ما تكون فى العبارات الاعتراضية التى يتوجه بها إلى القارىء (١٣٢) وفى عبارات التوكيد المختلفة مثل « بالتحقيق » أو « بالايقانى » أو « على اليقين » وهكذا . إلا أن الصفة العامة لهذه العبارات وأيضا أماكن استخدامها يشير بصفة رئيسية إلى أنها ترتبط من ناحية أخرى بمطالب والتزامات القافية .

وتوجد فى أل ١١٣٢ بيتا شعريا، ٢٠٢ حالة تستخدم منها ٦٨ لقبا مشكلة من ٣٨ أصلا . ومن هنا يتضح الدور الكبير الذى لعبته هذه الألقاب فى

تشكيل العمل على القافية . وليس فى هذا ما يثير الاستغراب إذا نحن تذكرنا ماهو معروف عن غنى اللغة العربية وخواصها الاشتقاقية الكبيرة إلا أن هناك حالات تشير إلى افتقار شديد فى اللغة يجب ألا تخدعنا . فمن بين كل لقبين من أصل واحد يستخدم واحد فى كل ثلاث حالات . والواقع أن من ٢٥ أصلا للقب واحد مثل ياأخى تحتست ٣٢ حالة استعمالية.

وفى حالات أخرى تبسط القافية المسجوعة باستخدام الحروف المتقاربة الأصوات فالباء المضمومة تكون قافية مسجوعة مع الواو والضاد مع الظاء والصاد مع السين وأحيانا مع الشين (١٣٣) وأحيانا تستخدم حروف تغيب معها موسيقى القافية مثل حرفى ت ، ث أو د ، ذ ، س وش ، ف و ق (١٣٤) وأحيانا لاتحسب حروف العلة أو الضمائر (١٣٥) أو تتم المطابقة بين الضمائر (١٣٦) وحذف النقط من التاء المربوطة يجعلها مساوية لضمير الغائب أو الهاء المتطرفة (١٣٧) . ونون (المثنى) تحذف أو تترك لفطنة القارىء ليحذفها (١٣٨) .

وفى النهاية ، فى المجموعة الثالثة من الأشعار يبسط اختيار القافية بتوافق وزنى فى القراءة (١٣٩) وأحيانا ما تكون بنفس النهايات (١٤٠) واحيانا مع اختلاف النهايات (١٤١) وأحيانا باتفاق تام (١٤٢) .

ويلاحظ تبسيط القافية أيضا باستخدام الأعداد وقرامتها الآلية (١٤٣) وأيضا فى الكلمات المعربة (١٤٤) .

وبهذه الصورة فإن نمط الأسلوب الأدبى الأراجيز ليس على مستوى رفيع . يؤكد هذ قلة القوافى الناجحة التى تتفق فى أصولها (١٤٥) أو تجنيسها (١٤٦) أو التوازى العكسى (١٤٧) أو التلاعب بالألفاظ (١٤٨) . وتجدر الإشارة أيضا فيما يتعلق بالحرية الشعرية إلى مسألة تقصير حركة المد أو مد الحركة القصيرة (١٤٩) أما الكلمات العربية غير الصرفة فتوجد بصفة رئيسية فى المسميات الجغرافية الطبيعية الوصفية والمفردات العنصرية وترد بدرجة أقل فى المسميات الفلكية والمصطلحات البحرية الخاصة (١٥٠)

التواريخ

من بين مؤلفات ابن ماجد الاثنين وثلاثين المعروفة حتى طبع هذه الطبعة ثلاثة فقط مؤرخة هى : ١ — أرجوزة « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » مخطوط ٢٢٩٢ ، رقم ٢ ، المؤرخ فى ٨٦٦/١٤٦٢ م
٢ — المقالة النثرية « كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد » مخطوط ٢٢٢٢ ، رقم ١ المؤرخ فى ٨٩٥ / ١٤٩٠ م .
٣ — أرجوزة « بنات نعش » مخطوط ٢٢٩٢ ، رقم ٦ المؤرخ فى ٩٠٠ / ١٤٩٥ م .

وبناء على هذه المعلومات استطاع « فيران » أن يؤكد بأن أعمال ابن ماجد الأدبية استغرقت فترة ٣٣ عاما (١٤٦٢ — ١٤٩٥) .

وبهذا تنتهى كل معلوماتنا التاريخية عن ابن ماجد إذا ما نحن أغفلنا الإشارة عن اشتراكه فى رحلة فاسكودى جاما سنة ١٤٩٨ . وقد سارت المصادر العربية الموجودة وراء « فيران » فى هذه الناحية ولم تأت بشىء جديد والأرجوزة اللينينجرادية لا تحتوى فى أى مكان ما على إشارات واضحة عن عام نسخها . لكنها تشرح مختلف أماكن الشاطىء الشرقى لافريقيا فى منطقة موزمبيق وتذكر الصحراء بين الواحات السودانية والمناجم فى سفالية وتشير إلى ما حكاه ابن ماجد عام ٩٠٠ (١٤٩٤/١٤٩٥م) عن مرور سفن الفرنجة (يعنى البرتغاليين) من أمامه تشق طريقها إلى الهند(١٢٥) . ولكنهم ضلوا مدة عامين بدون جدوى فى المياه المجهولة وعادوا إلى منطقة الزنج فى شرق أفريقيا (ص ١٩٤) . ثم تلا ذلك رحلة فاسكودى جاما وكان ما كان من إرساء . الإستعمار البرتغالى الثقيل فى شمال المحيط الهندى وهو ما أثار عند ابن ماجد شعورا بالمرارة : « ياليت شعرى مايكون منهم »

وهذا التلميح على مايبدو يتعلق بالدور الحاسم لرحلة عام ١٤٩٨ . وعلينا

سما ان نرى أساسا المعلومات الدقيقة . ولكن أهم تاريخ مذكور قبل هذا بقليل ص ٩٤ ا/س ١٦ ، عندما يشير إلى أنه بعد الإبحارات الفاشلة حتى أول رحلة لفاسكودى جاما وصل البرتغاليون إلى الهند فى ٩٠٦هى (١٥٠٠/ ١٥٠١) واتخذوا لأنفسهم هناك مساكن وأوطان وكونوا علاقات صداقة مع الأمراء السوامر فى كلكتا واعتمدوا عليهم :

وبعد ذا فى عام تسعماية وست جاءوا الهند ياخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وتذكر عام ١٥٠٠/١٥٠١م فى مكان آخر (ص٩٣) عند تحديد مكان رسو البرتغاليين على الشاطىء الهندى .

ومن الصعب إعادة تقدير أهمية هذا الدليل التاريخى . فأولا : على عكس ٣٢ مؤلفا لابن ماجد تنسب إلى القرن ١٥ نجد أن أراجيزنا النادرة ترجع كتابتها إلى أوائل القرن السادس عشر لأن عام ١٥٠٠/١٥٠١ هو باكورته . وثانيا : أن لهذا السبب تعتبر هذه الأرجوزات من فترة متأخرة عن باقى مؤلفات ابن ماجد المعروفة . وثالثا وأخيراً أنها تضيف ست سنوات كاملة إلى فترة أعمال ابن ماجد الأدبية وتمتد بها من ٣٣ عاماً كما حددها فيران الى ما يقرب من أربعين عاما . فإذا كانت الإشارة إلى اشتراك مؤلفنا فى رحلة فاسكودى جاما هى حتى الآن آخر دليل لذكره فإننا الآن نستطيع القول بثقة بأن أيام ابن ماجد امتدت حتى القرن ١٦ وأن تأنيب ضميره المر لما شاهده من سياسة البرتغاليين كان مبنيا على أساس ملاحظات طويلة .

ويحدد وقت نسخ الأرجوزة بتاريخين موجودين فى أجزاء أخرى من مجموعة المخطوطات ٩٩٢ — B . ففى نهاية نص المؤلف الأول من المؤلفات الموجودة فى المخطوط (ص ص ١ - ٣٩) المعنون « رسالة فى

علم الموسقى (الموسيقى) المسمى بزين الحان ، إشارة إلى أنها نقلت فى أواخر شعبان المعظم سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أى فبراير ١٥٣٥ م .

وآخر مؤلف فى المخطوط (ص ص ١٠٨ ب — ١٤٧ ا) كتاب واقعات (فى النص واقعاة) للسطان جم بن سلطان محمد خان. وهناك فى ص١٤٧ ا الإشارة التالية : (قد تم كتاب واقعات سلطان جم سلطان بعون الله وتوفيقه فى تاريخ سنة عشرين وتسعمائة) أى فى ١٥١٤ م . وليست هناك أية معلومات دقيقة أخرى فى المخطوط . والتاريخان ١٥١٤ ، ١٥٣٥ م . نفسهما لا نجد فيهما أية معلومات دقيقة عن تاريخ نقل أرجوزتنا .

ومجموعة المؤلفات المختلفة فى المخطوط منقولة بخطوط مختلفة خرجت من تحت أقلام مختلف الناقلين . وعلى هذا فما لدينا ليس مؤلفات تختلف فى المؤلفين فحسب وإنما فى تنوع موضوعاتها وفى اختلاف خطها وكتابها.

كل هذا مجموع فى مجلد واحد وتوضح النظرة القريبة أن سبب ذلك يرجع إلى وحدة الزمن الذى نقلت به محتويات هذا المجلد . ويشير إلى ذلك حقيقة أن تواريخ نقل أول وآخر محتويات المجلد ليست فى فترات متباعدة وأن درجة حفظ الأوراق ولون الحبر متساوية . ومن هنا أخذ التاريخان ١٥١٤ ، ١٥٣٥ ، على أنهما تاريخان دقيقان بصفة عامة . على هذا يكون لدينا الأساس لافتراض أن زمن نقل الأرجوزة هو النصف الأول من القرن ١٦ .

وقد تم نقل الأراجيز الثلاثة بعد موت مؤلفها . وتشير إلى هذا عبارات المترجم التى تساق بعد اسم ابن ماجد فى مقدمة نص الأراجيز :

فى الأولى (تغمده الله برحمته - ص ١٨٣ ا) فى الثانية (رضى الله عنه — ص ٩٧ ب) وفى الثالثة (رحمه الله — ص ١٠٤ ب) . وهذا يشير فى

الواقع إلى أن المقدمة ظهرت بعد نص الأراجيز الشعرية الأصلية وأن الناقل قام بوضع عنوان وعرض مختصر لمضمون كل منها .

المضمون

إذا كنا عند تحليل الأراجيز قد تناولنا خواصها الخارجية فإن أخذ المضمون فى الاعتبار يكشف عن الصورة الداخلية للمؤلفات الثلاث .

فمن الناحية الشكلية الأرجوزة تعنى قصيدة مكتوبة على وزن الرجز وهى فى الواقع هنا تعتبر أولا دليل الملاحة فى المحيط الهندى ويأتى الوزن الشعرى والقافية فى الصف الثانى . ونفس كلمة « قصيدة » هى كلمة اعتبارية فمثل هذه الصورة التى كتبت بها الأبيات إنما تخدم غرضا عمليا هو تسهيل استذكار المضمون أى المعلومات المتنوعة اللازمة عن الطرق البحرية. وعلى هذا الأساس ينبغى أن تكون النظرة إلى ناحية التحليل الأدبى للأراجيز وإلى تفسير الأخطاء الأسلوبية السالفة وكل ما يتعلق بنقص الصورة أو عدم اكتمالها .

والعنوان الجغرافى لكل من المقطوعتين الأولى والثانية موضح بالتسمية التى اختارها الناقل . فالأولى تعرف « بالسفالية » وفى الجزء السادس منها شرح شروط الإبحار فى مياه الشاطىء الشرقى لافريقيا . والثانية « المعلقية » ولها علاقة بالهند وجزر الملايو وموانى جنوب الصين والثالثة مكتوبة تحت اسم استعارى «التائية» « أرجوزة » على قافية التاء .

ولكن بعد هذا مباشرة إشارة إلى أنها «من جدة إلى عدن» وهى عبارة عن دليل أو وصف لذلك الطريق المائى القصير عبر البحر الأحمر ، وهو ما يمكن أن يكون الدليل البحرى لابن ماجد نفسه المشهور فى عصره بملاح « طريق الحج » .

وعلى هذا النحو تعطى هذه المؤلفات الثلاث فى مجموعها صورة كاملة لحوض المحيط الهندى والجوانب الأساسية المختلفة الملاحة فيه وإلى جانب ذلك فإن هذه المؤلفات تمكننا من الحكم على مستوى علم الملاحة عند العرب فى القرن الخامس عشر .

وكما يزيد فى أهمية هذه المؤلفات أن المائة عام الأخيرة لتلك الفترة كانت فى كثير من النواحى ذروة ما بلغه هذا العلم .

وفى عملية الشرح أو التفسير يختلط موضوعان أساسيان . أولا : الفلك أى شرح موضوع النجوم بالنسبة لأى مكان على شواطىء المحيط الهندى والإشارة إلى العامل النجمى الذى يتحكم فى تحديد الخروج أوعدم الخروج إلى البحر المفتوح ، وبيان الاتجاه الذى يزيد أو ينقص معه هذا العامل . وثانياً : الجغرافيا الطبيعية التى تتضح فى شرح هذه الأماكن نفسها وبيان أى عمق معين مع تحديد أو تثبيت الجزر اتق على نفس الطريق ، وكذلك بيان المياه الضحلة والشعب وطبيعة المجرى ، والدوامات واتجاه الرياح فى مختلف أوقات السنة .

أما طريقة شرح الموضوعين فهى غير متكافئة . فإذا كان الموضوع يحدده الأرقام الجافة المتعلقة بوضع النجوم بالنسبة لمحاور معينة فإن الموضوع الثانى يتميز بأكثر من هذا . فعند شرح الأماكن ترد معلومات تتعلق بالخواص الطبيعية للقشرة الأرضية . والمزروعات ، والحيوانات ، والثروات الجافة فى باطن الأرض . وكذلك تساق أسماء الأجيال والحضارات المتعاقبة . وأحيانا ما ترد الأسماء الجغرافية للأماكن بلغتين أحداهما العربية والثانية لغة ذلك المكان . ونجد أن الموضوعين يمتزجان بشكل ملحوظ فى كل صفحة تقريبا بل وأحياناً فى البيت الواحد . ولكن على وجه العموم فمن الناحية البصرية يسيران بموجات متغيرة . فمثلا فى

القصيدة أو المقطوعة الأولى يمكن قراءة الشرح الفلكى الأساسى فى الأجزاء ص ص ٨٣ ب ، ٨٦ ب ، ١٨٨ ، ١٨٩ ا والنصف الثانى من ٩٠ ب ، ٩١ ب والنصف الأول من ص ٩٢ ب وبعض الأماكن من ص ١٩٥ ، ٩٥ ب . أما الأماكن التى تشغلها الجغرافية الطبيعية فالجزء الثانى من القصيدة مخصص لها كله تقريباً دون تجزئة . وفى القصيدة الثانية تتركز المادة الفلكية فى ص ٩٧ ب ، ١٩٨ ا ، ١٩٩ ا . وما بقى فللجغرافية الطبيعية . وأخيراً فى الخريطة أو القصيدة الثالثة لا تحتل الإشارات النجمية مكاناً خاصاً وذلك بسبب حجم القصيدة الصغير نسبياً ، وإنما تساق هذه الإشارات على أنها عوامل مساعدة عند شرح المعلومات الخاصة بالجغرافية الطبيعية .

والجزء الثانى من الأرجوزة الأولى حى بالإشارات المتكررة عن « الفرنجة » (البرتغاليين) فعلى بضع صفحات يتكرر اسمهم ١٤ مرة ولكن بصرف النظر عن هذا التمايز الخارجى وبصرف النظر أيضاً عن أن أخبار المؤلف فى هذا الجزء تعلو أحياناً بألحان مؤثرة فإن الأمر كله تقريباً يتعلق عامة بموضوع الجغرافية الطبيعية . ولأول مرة يذكر الفرنجة عند وصف الرياح الموسمية التى تهب على الشاطىء الشرقى لأفريقيا فى منطقة « كلوة » . وعدم معرفتهم بمواعيد هبوب هذه الرياح أدى إلى الحاق الكوارث بسفنهم (٩٢ ب / ٤ — ٧) ومن ثم كان من المهم أولا التعرف على نظام الرياح لهذه المنطقة .

يقول :

زلوا بها الأفرنج علق الموسم ... فى عيد ميكال بالتوهم
قام عليهم موج تلك الروس ... فى سفـــاله بقى معكوس
وانقلبت أدفالهم فى الماء ... السفن فوق الما ياخائى
غرقى يرون بعضهم بعض ... وكن عارفا موسم تلك الأرض

ومن الغرب ومن بلاد الفرنجة يأتى الناس إلى « سفاليه » طلبا لجمع النحاس والفضة (٩٣ ا س ٩ — ١٠) .

وهذه الملاحظة تقال كما لو أنها بين قوسين عند وصف « سفاليه » ومناجمها التى كان يملكها اثنان من الأباطرة الأجانب ، وبعد هذا مباشرة يأتى ذكر النيل . وهناك مكان مهم أو كبير لذكر الخصائص الجغرافية « للفرنجيات » أى الأملاك المسيحية . وفكرة ابن ماجد هى أن يربط بين هذه الأملاك وبين حدود روما القديمة التى تمتد من جزر الكناري إلى ماوراء القوقاز ومن « سيوطى » والبندقية « سوق الجميع عند بر الروم (ص ٩٣ ب — س ١٥) إلى مدغشقر ، ومنها عن طريق الممتلكات البرتغالية فى الهند إلى الصين (ص ٩٣ ا س ٢٤ — ٣٤ ، ص٩٣ب ، س ٦ ، ص ٩٤ب / س ٢٥ — ٣١) . وعند وصف الصحارى بين سفاليه والسودان تظهر إشارات إلى سفن الفرنجة التى كانت تبحر بحذائها بحثاً عن الطريق إلى الهند . وبعد سنتين من الضلال فى البحر المفتوح رجعت هذه السفن إلى الشاطىء الأفريقى (ص ٩٤ ا / س ١٢ — ١٥) .

وفى الإخبارات عن رحلات الفرنجة — الذين وصلوا إلى الحبشة وأخذوا معلومات وصفية من كل قادم من بلاد الهند — تقول فى هذه الإخبارات تنعكس أخبار البحث عن الطريق إلى الشرق (ص ٩٤ ب / س ٣٢ — ٣٤). وفى هذه الأنباء الهادئة عظمة اتزان فكر الإنسان . ولكن أحياناً يتغير هذا الفكر لدى ابن ماجد : شاهد العيان لوقائع الاستعمار البرتغالى بنظامه الدخيل على المحيط الهندى الذى أساء إلى الملاحة العربية . فيجد أنه من الضرورى أن يعبر فنياً عن إحساسه الثائر . يقول عن المستعمر البرتغالى :

وجالكاليكوت خذ دى الفايده ... لعام تسعماية وستة زايده
وباع فيها واشترا وحكما ... والسامرى برطله وظلما
وسار فيها مبغض الإسلام ... والناس فى خوف واهتمام
وانقطع المكى عن أرض السامرى ... وشد « جردفون » للسافرى
وخبرنى ما حمله الفرنجى ... من جانب السودان شط اللجى
وهو الذى قد قهر المغاربة ... وأندلس فى حكمه مناسبه

(ص ٩٣ب ، ١ — ٦)

وبعدها على الجنوب تأتى جزر « شربوه » وهم ثلاث :
أحمرهم يا صاحبى وشيـــكا والعاج والعنبر فيها يدركا

(ص ٩٣ ب ، س ٣٤ — ٣٥)

وخشب الفرنج قد جاءوها وملكوها بعد أن غازوها

(ص ٩٤ ا سطر ٢)

وبعد فترة قصيرة يعود المؤلف إلى أحداث عام ١٥٠٠ / ١٥٠١ م (ص ٩٤ ا س ١٦ — ٢٠) .

وبعد ذا فى عام تسعماية وست جاءوا الهند ياخاية
واشتروا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر سكنوا
والناس تضرب فيهم الظنونا ذا حاكم أو سارق أو مجنونا
ونضرب السكة وسط البندر بندر كاليكوت بين السفر
يا ليت شعرى ما يكون منهم والناس معجبين من أمرهم

وهذا الندم المرير لملاح فاسكودى جاما والتاريخ الذى يشير إليه شهادة ذات أهمية تاريخية أدبية من الدرجة الأولى . ولا يوجد حتى الآن أى مصدر آخر يتضمن هذه المعلومات من المصادر التى بنيت عليها دراسة فاسكودى جاما وابن ماجد .

هناك فى نهاية كل من الأراجيز الثلاثة يرد لحن خاص يكمل الصورة العامة للمزاج الفكرى عند المؤلف . فهناك الشكوى من هبوط روحه المعنوية التى يفسرها على مايبدو بضعف التأثير الإسلامى فى الخارج وهناك أيضاً الفرحة بمناسبة الوصول بالسلامة إلى الميناء والتفكير فى خطط المستقبل. وها هو يصف ملاقه مختتما بذلك موضوع الأرجوزة الثانية (ص ١٠٤ ا — س ١٢ — ٢٢) . يقول :

فادخل إليها ظافراً بالبندر هنيت بالمحصول ثم السفر
فى خمسة ويكون أربعـــة وثبت الأبخر فيها واسمعه
تأتى الك الناس فبيس الناس لم يعترف قط لهم أساس
يزوج الكافر مسلمات ويأخذ المسلم كافرات
إن قلت كفار فماهم كفرة أو قلت إسلام فغير مخبرة
عندهم السرقة قد سنوها ما بينهم فليس ينكروها
ويأكل الكلب لحم المسلم ما بينهم فليس فيهم محتم
ويشربون الخمر فى الأسواق ولا يصلون على الإطلاق
وينقصون العهد والهدية يسعوا لها بالرحل والأذية
صنعتهم الكذب والمطال فى المشترى والبيع والأشغال
فاحتذر منهم كل الحذر لاتضربن جوهراً على حجر

وأية فرحة تلك التى يصف بها ابن ماجد الطريق بالبحر الأحمر إلى أحد موانىء جنوب الجزيرة العربية (١٠٥ ب ص ٨ — ١٢):

واجر على الشعشر بليل فإن يكن
نهار فنحو « الطاير » اجر « لعارتى »
إذا كنت فى بعض الجلاب ومركب
خفيفاً ولم تخش على الرأس طخله
وزدْه على نجم الثريا وشرقها
لشمسان وادخل نحو بندر عارتى
فيانعم تلك الدار اربط حولها
بأمن فيـــانعم هنا ومسرتى

ويتلو ذلك لحن دينى فى ثلاث أبيات يدخل ضمن الأرجوزة الثالثة .

وفى هذا الجزء يدوى شعور كبير بالثقة بالنفس عند الاقتراب من

المراسى الإسلامية . وربما أنها صدى ذكرياته عن والده الذى قاد السفن عشرات السنين فى هذه المياه بل وفى نفس ميناء « عارة » .

وينظر ابن ماجد إلى السيطرة البرتغالية على الطرق فى المحيط الهندى على أنها حالة حرب وهو يريد أن يحيا « لزمان الصلح » حتى يمكن أن يحقق أماله وأحلامه المباركة (ص ٩٥ ا ١٠ — ١٢) .

وإن كلماته — وهو الرجل الذى يعيش عقده السابع من حياته المتنقلة — لتنبىء عن طاقة داخلية ضخمة وحب كبير لمهنته الشاقة وعمل حى لا يعرف الهدوء . وفى الواقع لقد لاحظنا من قائمة أسماء الأعمال الأدبية — العلمية لابن ماجد التى دخلت إلى العلم ، سعة أفقه الثقافى عامة . وفى مجال المعرفة المتخصصه نجد قوة دافعة للعلم لاتعرف الكلل فهو بنفسه يجمع وينقح ، وينقد المواد اللازمة لخرائطه لوصف الطرق البحرية سواء كانت هذه المواد من المعلومات الايرانية القديمة راه نامك أو من معلومات المعاصرين باللغات المختلفة أو من تجاربه الخاصة الغنية . وهذا بالتالى يجرنا إلى الكلام عن موضوع المصادر .

المصادر

إن تراث ابن ماجد الأدبى غير متجانس حتى فى هذا الجزء الصغير من الأراجيز بأبياتها الـ « ١١٣٢ » . وحقيقة أن أسماء المصادر هنا لاتعدو إشارة واحدة إلى كمال الدين محمد بن موسى الدميرى (٧٤٥/١٣٤٤ — ٨٠٨/١٤٠٥) مؤلف مقالات عن حياة الحيوان (١٢٦) .

ولكن كثيراً من المعلومات ترد بإشارات مبتورة مثل : « عن ذوى التجارب » أو التجريب ص٨٩ب/س٩ ، ٩٢ ا/س٣ ، ٩٣ ا/س٦ ، ٩٣ب س٣٠ ، ٩٤ ا/س١٠) و « أنقل ذا عن خابر قد جربه » ص٩٣ ا سطر٢٣

و « لم أعتبر إلا بعلم واكد » ص ٩٤ب س ٢٤ ، و « قيل لى » ص ٩٤ب سطر ٢٦ ، « قد قال لى عنها حكيم خابر » ، « لكن سمعنا خبراً ظريفا من خابر ذى فطنة ظريفا » ص ٩٥ب سطر ١٣ — ١٤) . و « ممن يصدق هذا الخبر » ص ٩٥ب سطر ١٨ ، و « لما سمعنا علم هذا البر زال بذا الشك قصرنا ندرى » . ص ٩٥ب سطر ٢٣ وهذه المصادر ، مع عدم تحددها ، تعتبر أمينة فبعض فقرات النصوص التى اختارها ابن ماجد تبين أنه أدخل عليها تصحيحات وتعديلات . فعند وصف جزيرة « واسينى » بين قنبلو ومنبسه ، يشير إلى أن مستنقعاتها أو وسخها يمتد حتى آخر الجنوب بينما الغرباء الزنوج يؤكدون أنها تمتد إلى الشمال فقط . يقول ابن ماجد فى ص ١٨٩ س ٣ معلقاً على هذا :

وذاك عندى خطأ ياصاح اسمع لوصفى تلتقى الصلاح

ويقول فى مكان آخر أن فوق « منفية » (جزر جنوب زنجبار) تتشكل مجموعة الدب الأكبر من ١٢ أصبعاً عند الأفق ومن فرقدين اثنين . وأن الفرقد الكبير يبعد بمقدار ٢٢ أصبع والصغير بمقدار ٣٢ أصبع . ورأيه هذا يذكره بشدة :

قد كذبوا الزنوج فيما قالوا لأنه أزيد وذا محالُ
والفرقدين الكبير أصبعين ونصف قد جربته بالعين

ص ١٩٠ سطر ١٤ — ١٩

وعدم تحديد ابن ماجد للأسماء المقتبس عنها يجعل منها مجموعة من المصادر الخارجية التى تتضمن حكايات عن الملاحين الربابنة السالفين وعن أضافاته فى المهنة وكذلك عن إشارات « الراه نامك » الإيرانية . وهذه الأخيرة ورد ذكرها فى النص مباشرة مرة واحـــدة عند مناقشة عدم ثبات المسميات الجغرافية المشار إليها تحت هذه الدرجة أو تلك وقد عبّر فى أواخر الأرجوزة الأولى بقوله : « ما أنا من يخفى العلوم »

(ثم مطالعها على السواحل) ما أنا من يخفى العلوم (ياخل)
لو تخلف أسماؤها فى الحاويه ما يلزم العبرة إلا الراوية
وقد يقال عشرة بمـــدور والدير، فافهم مثلى واعتبر،
وقد يقال مهايم وتانه ويقال نهراوى[1] خد بيانه
وقد يكون سبعه بساجر[2] ثم ظفار[3] افتهم أشاير
فهكذا فى الأبحر المجهولة ميز بالأفكار ماأقوله
كذلك فى رهمانج المقدما ليس له اليوم تبادرا العلما
قد حرفت أسماؤها وغيرت وخيرها للشخص ماقد شهرت
(ص٩٥ا ٢٢ — ٣٠).

وتحت هذا النوع من المصادر الخارجية تندرج المعلومات المباشرة، أو غيرها التى حصل عليها من البرتغاليين: «وزادنا بعلمنا الفرنجى» (ص ٩٣ ا سطر ٢٤)، و «أسنده أيضاً لنا الأفرنج» (ص٩٤ب س١٣)، و «قالت الفرنج» (ص٩٥ب سطر٢٩).

أما بالنسبة لمعلوماته عن المحيط الهندى فى نفس بدايه القرن السادس عشر فقد كان الملاح العـــربى مضطراً أو فى حاجة إلى الاعتماد أيضاً على المعلومات البرتغالية وهى حقيقة واضحة بالطبع. ففى ذلك الوقت كان تغلغل الغرب من جميع النواحى إلى هذا الحوض يسير بذلك الوضوح وتلك السرعة لدرجة أن ابن ماجد أحياناً مايرجع القارىء بصراحة إلى المعلومات الغربية: خذ منهم ذاك النهج بالإيضاح». (ص ٩٥ ا سطر ٦).

وسوف تزداد بهذه الطرق من الفرنج معرفة وحذق
(ص٩٦ ا — س١٥)

وهكذا فإن هذا الرجل (أى ابن ماجد) بتوضيحه للغرب الطريق إلى

---

(١) مدينة فى الهند
(٢) جبل فى الجزير العربية
(٣) ميناء عربى على المحيط الهندى

الشرق قد وضع فى يد الأول قصب السبق فى الجغرافية البحرية بعد طول حفاظ دقيق عليها من الثانى .

وإلى جانب هذه المصادر الخارجية توجد مصادر أخرى داخلية ونعنى بها مؤلفات ابن ماجد نفسه وخبرته وتجاربه المهنية الطويلة . وهو يذكر فى عداد النوع الأول (المؤلفات) « حاوية الاختصار فى أصول علم البحار » وهى من أوائل انتاجه (٨٦٦ / ١٤٦٢ م) — كما لو أنه يضعها فى آخر أعماله فى عمره الأربعين (١٩٥ س ٢٤) ويذكر أيضا مؤلفا آخر لايذكر اسمه « ذكرتهم فى غير تلك الأرجوزة ص ١٨٦ السطر الأول).

أما المصادر المتعلقة بتجاربه الخاصة فلها مكان أوسع (أنظر ص ٨٣ ب س : ١٥ ، ٨٤ ب س : ٢ ، ١٨٦ س : ٧ ، ٩٠ ب : ١٨ ، ٩٨ ب : ١١) لاسيما إشارته إلى كيفية استعمال البوصلة (١٨٩ سطر ٢٠) . ويؤكد ابن ماجد أكثر من مرة أن الظواهر التى يصفها قد رآها وخبرها بنفسه .

وتتفوق المصادر العملية لديه على المصادر النظرية وهذا بالطبع شىء ضرورى وأصولى بالنسبة لخرائط الملاحة البحرية . فنقطة البداية لديه هى معلوماته التى ثبتت لديه بعمله الطويل فى البحر إذا أن الارشادات النظرية مهما بلغت من الكمال لا يمكن أن تقوم مقام تجارب الملاحة الخاصة .

ومع احترامه الشديد للبحارة السالفين وكبار معاصريه فى استعماله لخرائطهم إلا أنه كان دائما يضطر لمراجعتها ومطابقة مدى معلوماتها على واقع التغيرات البحرية مدخلا عليها التعديلات الضرورية . ولهذا لسبب ونعنى به عدم الوثوق فى المعلومات المعروفة ، تجد ابن ماجد فى كل صفحة من المخطوط يلح على القارىء باصرار أن يراجع بتجاربه الخاصة صحة ما يحصله من المعلومات .

ومن تحليل طرقه الكثيرة المتعددة فى توجيه الكلام للقارىء . يتضح

أن من بين ٩٠ نوعا منها تحتل أعماله النشيطه ثلثا كاملا . والواقع إن أى مجال فى الأدب العربى لم يصل إلى هذه الدرجة من فهم القارىء لنفسه ولدوره وعلاقته النقدية نحو نفسه ونحو العالم ولا يوجد هناك مثيل لهذا الأساس المعقول . وتكتمل خصائص مضمون الخرائط الثلاث بعد كلمات ابن ماجد فى نهاية الملحمة الأولى يقول فيها : (ص ٩٦ ا سطر ٧ — ١١٦) .

ذكرت منها ما يليق فى السفر ... وكم جزاير غير هذا وخطر
لو لم يكن إلا جزيرات النسا ... يحكم عليها ساقط قد خسا
وجزر طير الرخ والقصار ... من نسل آدم كن بذاك دارى
ثم الكسور فى القياس والدير ... أو سعت أو جزيرة بلايسر
أو شدة الما ومرسا ترسه ... فالفحل من دبر فيه نفسه
وقف وخفف إن أخذت فيها ... خلاص يا ربان ثم أصفيها
ثم تأمـــله بذى السفالية ... تهديك فى الجنوب خذ مقاليه
لا غيرها فى هذا الطريق ... أعم منها علم بالتحقيق
وسوف تزداد بهذه الطرق ... من الفرنج معرفة وحذق
فى آخر الزمان بالتكرار ... طرف جديدة فتحوا كن دارى

وبهذا الاعتراف الواضح المعبر ينتهى النص. أما الأبيات الأربعة عشرة (١٧ — ٣٠) الأخيرة فترجع إلى الناقل الذى يتحدث فيها باختصار عن دوره فى إنتاج هذا المخطوط .

(بهذا الخصوص أنظر بداية الجزء الخاص باللغة) .

قواعد وأصول الطبع

إن معنى أن المخطوط فريد لا يلغى بصفة عامة إمكانية وجود نسخة أخرى وإنما ينصرف هذا المعنى إلى مجرد تحديد عدد النسخ الموجودة تحت تصرف العلم . ولعل هذا يفسر قلق عندما بدأت العمل على نشر هذه

النسخة . وكثيراً ما يكون تحت تصرف الباحث أكثر من مخطوطين ربما مخطوطين على الأقل . وهذا يمكنه من الوصول إلى الصورة الموحدة النقدية للنص الذى يعده للنشر . أما هذا المخطوط الليدنجرادى لابن ماجد فهو فريد . من هنا كانت ظروف العمل عليه صعبة .

وقد تحسن هذا الوضع بعض الشيء بوجود الصور الفوتوغرافية المخطوط الباريسى٢٢٩٢ حيث يوجد ١٩ إنتاجاً آخر لابن ماجد بعضها يشبه هذا المخطوط فى شكله وطابعه . وبالطبع لم تستطع هذه الأجزاء المتشابه أن تحل إحداها محل الأخرى . إلا أن وحدة الشكل والطابع اقتضت وحدة اللغة والمصطلحات الخاصة إلى حدما مما ساعد على فهم المضمون عامة ومطابقة المسميات الفنية على كل حال وقد لعبت الصور الفوتوغرافية دور كبيرا كان من الممكن أن يكون بالغ الأثر لو أنها كانت عملا مكتملا فى صورة طبيعة نقدية وليست مجرد صورة فوتوغرافية لأصل المخطوط الفرنسى . ومع أن هذا والحق يقال قد أدخل فى اعتباره مواد دمشقية مماثلة إلا أنه غير مترجم وتنقصه التعليقات وأقصد بذلك المواد التى لها علاقة بنص ابن ماجد ومشبعة بالمصطلحات الفنية المعقدة ولها أهمية كبرى .

والمجموعة الثانية التى استخدمت فى هذا العمل عبارة عن الكتب الموسوعية ذات الطابع العام . وهذه تشمل(١) بعض مؤلفات فيران نفسه بعنوان "Relations" وهى عبارة عن تلخيص المعلومات الجغرافية عن الجزء الشرقى للمحيط الهندى للمؤلفين المسلمين من القرن الثامن حتى القرن الثامن عشر .

٢ — مؤلفات بيتر توماشيك بعنوان "Die topographischen capital وهى عظيمة القيمة لا بمضمونها فحسب بل وبالثلاثين خريطة للطرق

البحرية الملحقة بهذه الطبعة التى تعطى الصورة الجغرافية الطبيعية للمحيط الهندى فى القرن ١٥ .

٣ — مؤلف « يوسف كمال » بعنوان : "Monumenta Cartographica" وهو يعطى مادة للتحديد الجغرافى للاتجاهات فى شواطىء شرق أفريقيا(١٨٢) .

٤ — أطلس « ك . ميللر » "Mappae Arabicae" . وفيه توضح على الخرائط أحيانا مجموعة الأسماء الجغرافية .

٥ — « دائرة المعارف الإسلامية » ومختلف أنواع المعاجم من كل بمقدار ، أدى فى النهاية إلى عون كبير فى مطابقة النص .

أما المجموعة الثالثة فتتعلق بالمؤلفات الجزئية التى تمس موضوعنا مساً غير مباشر وقد تمر بها عابراً فى بعض الأحيان وفى أحيان أخرى تحل الإشارات الصريحة محل الإشارات التلميحية . ولكن مع العمل والمثابرة تجمع رصيد قيم من المعلومات البالغة الأهمية .

أما المجموعة الرابعـــة فتتعلق بكل المؤلفات غير الشرقية والمصادر الاستشارية الخاصة بشرح بعض الأجزاء التفصيلية . وبيان تفصيل المجموعتين الأخيرتين مذكور فى قائمة المراجع فى نهاية الكتاب وهو يعتبر دليلا مرجعياً للطبعه ويفتح البحث الطريق أمام المقالات التى تهدف لا إلى عرض المعلومات فحسب بل وإلى نظام عرض هذه المعلومات الموضوعة اليوم تحت تصرف العلم وتتعلق بابن ماجد بصفه خاصة وعلم الملاحة العربية بصفة عامة .

ولعل مثل هذا العرض للمؤلفات الثلاثة يعتبر مطولا . إلا أن ذلك ضرورة يحتمها من ناحية عدم وجود معلومات عن أحمد بن ماجد فى الكتب

الروسية . ومن ناحية أخرى غموض موضوع الملاحة العربية فى هذه الكتب . إن بعض الإشارات الجزئية عن حقائق أعمال ابن ماجد توجد بصفة عامة وتوجد أيضاً فى المحاضرات المتخصصة عن التاريخ الجغرافى العربى التى كان يلقيها كراتشكوفسكى فى جامعة لينينجراد منذ سنة ١٩٣٣ . وفى كتابيه « الجغرافيون والرحالة العرب » (١٩٣٧)، ومع المخطوطات العربية، (١٩٤٢) الفصل الخاص « بأراجيز أحمد بن ماجد » توجد خصائص أعمال ابن ماجد باختصار، وملخصاً للمعلومات الأولية عن قراءة مخطوط ارجيزه وفى سنة ١٩٤١ ظهرت فى لينينجراد الترجمة الروسية الأجزاء الجغرافية من المجلد الثانى لكتاب العالم الفرنسى كارادى فو بعنوان (Les penseurs de l'Islam) « مفكرو الإسلام »

ومن الثلاثة الفصول المترجمة يتعلق الفصل الثانى بالملاحة العربية وتصوراتها الأساسية . وفى هذا الفصل خصص جزء كبير لابن ماجد ولكن لا جديد فيه . وبهذا ينتهى ما فى الكتب الروسية . ومفهوم أن مثل هذا الوضع قد أدى إلى كبر حجم الملاحظات الخاصة بالبحث والدراسة التحليلية. وجزء كبير من هذه الدراسة مخصص للتحليل الكامل للمخطوط المنشور وهذا التحليل على ما أظن ، يؤكد أن هذا المخطوط يستحق الاهتمام فعلا .

وكما سبق القول فإن مخطوط الأراجيز الثلاث (لابن ماجد) قد نشر بناء على نسخة فريدة وحيدة . ولكن مع استخدام المصادر المناظرة إلى جانب دراسة الكتب المتخصصه قد سمح بتصحيح قراءة بعض الكلمات المنفردة وتجميع ملاحظات البحث .

وهذه الترجمة التى كان من الممكن أن تكون على صورة أحسن ، هى محاولة أولى باللغة الروسية لنقل الأمثلة والنماذج الفنية للكتب البحرية العربية . ومن الجائز أن يكون لها نفع لفهم موضوع الملاحة الشرقية وفائدة أيضا للدراسات النقدية المقبلة فى هذا المجال .

والجزء الأخير من الكتاب وهو الخاص بالملاحق - عبارة عن مجموعة مسلسلة من الارشادات والرسومات والجداول (ملحق ١ - ١٣) مرتبة بالنظام التالى (*) :

١ — « المرشد الجغرافى البحرى، ٢ — خريطة صورة بحر الهند والبنادر وتعتبر تكملة توضيحية للأراجيز الثلاث وفيها يذكر أهم الأسماء الجغرافية ٣ - الدليل الفلكى ويتبعه الملاحق الخمسة التالية : ٤ - ٣٢ خنا من دائرة الرياح العربية ٥- حاشية لدائرة الرياح العربية (أماكن وجودها وتفسيرها وفهم تقسيمات الأختان) ، ٦ - « أوجه القمر الـ ٢٨ » (أسماؤها ومعناها وأوضاعها)، ٧ - تقسيم أوجه القمر بالعلامات البرجية (علاقتها) ٨ - تواريخ أوجه القمر ٩ - دليل المفردات الخاصة بالملاحة (أسماء الآلات والأجهزة ، والرياح وأنواع الأسطح البحرية ، والشواطى...الخ) ١٠ - معجم المفردات المنوعة ذات الطابع العام التى تتطلب شرحا خاصا (الأسماء المذكورة فى نص المؤلف، وسور القرآن وأشياء أخرى ١١ - « الدليل الأبجدى للقوافى » ١٢ - دليل الأوزان العروضية ١٣ - دليل أسماء المنادى » .

وتكتمل الطبعة بقائمة الكتب والمراجع ودليل الرموز والاختصارات . وأى دليل أو مرشد يعتبر فى نفس الوقت معجما وهى عملية نافعة من حيث الاختصار وسهولة الاستعمال . وكل تعريف فى المعاجم الموجودة فى الكتاب متحقق منه بالرجوع إلى مصادر موثوق بها ونادرا ما يقتصر على مصدر واحد فقط . وقد حاول الباحث أن يوسع إلى أقصى حد ممكن دليل المصادر والكتب لتتضح قيمة ما بذل فى هذا العمل من جهد . وقد تم بناء خريطة الطرق والمسالك على أساس المعلومات الجغرافية البحرية والمعاجم ومراجعة نظائرها فى « المحيط » اشلى « والأطلس » لبيتيز - توما شيك وقد عممت الجداول والرسومات كوسيلة لنشر المعلومات الناقصة فى الكتب الغربية .

(*) تعدل ترتيب هذا النظام كما سبق أن أشرنا فى المقدمة إلى النظام الموجود فى الفهرس

ومن المراجع الأساسية التى يجدر الإشارة إليها هنا وإن كانت ليست المراجع الوحيدة هى : «Unter suchungen» لأيدلر ، وكتاب «Introduction Générale" لرينو ، و Introduction لفيران ودى سوسبور. وقد أمكن إيجاد الأوزان العروضية بوضع ثلاثة نماذج فقط لأن الخرائط الأساسية مكتوبة بوزن واحد وليست إنتاجا شعريا بل جغرافيا وخصص جزء مستقل لكلمات المنادى وهى عملية غير مألوفة فى الكتب وربما تضجر منها القارىء - وهو نتيجة لضخامة كمية الأمثلة من هذا النوع فى النص وهو تأكيد لإحدى الصفات المميزة للغة ابن ماجد .

ويمكن القول أن الملحقات تعكس تعدد جوانب مضمون الأراجيز الثلاثة وهو ما يشير إلى أنه حتى فى المجالات المتخصصة من الأدب العربى هناك سرعة تغيير الموضوع الأصلى وهى سمة خاصة بالمؤلفات الموسوعية . ونخرج من هذا بأن الأدب العربى يتميز بتعدد جوانبه .

هذه هى طريقة بحث الأراجيز الثلاثة الفريدة وإعدادها للنشر . والأساس هنا هو النص العربى وما أثاره من أسئلة وتشكيكات وفروض وتخمينات . وكانت أهم فترة بعد كتابة مسودة هذا العمل المضنى عندما ظهرت المعاجم والجداول التى أمكن تحسينها مع الزمن . ومن هذه المعلومات وضع أساس العمل على الترجمة وأخيرا فإن حصيلة كل هذه المعلومات الجزئية تدخل فى صياغة وتنظيم التعميمات وهو ما يتكلم عنه لا الإنتاج فحسب بل وناقدوه أيضاً ومخصص لهذا مكان فى المقدمة أو المقالة الافتتاحية .

وهناك بعض الخروج عن القواعد المعروفة فى كتابة الكلمات والأسماء العربية باللغة الروسية، وكذلك ترتيب الكلمات فى المعجم يختلف عن الطريقة المتبعة عادة، والاساس هنا هو أن توضع نفس الكلمة لا أصلها. فمثلا اعتدل توضع تحت حرف الألف وليس « العين » و « مرسى » أو « معلم » تحت

« الميم » وليس تحت « رسو » أو « علم » . وهكذا وأداة التعريف « ال » لا تحتسب بالطبع .

ويجب ألا ننسى المعلومات التاريخية لابن ماجد وهو أول من عرفناه من المؤلفين الحقيقيين لخرائط الملاحة العربية . ويعتبر هذا العمل أول محاولة لنشر إنتاج ابن ماجد فى العالم الأوربى . وقد فكر فيران منذ ربع قرن مضى فى تحقيق أربعة مخطوطات أخرى لابن ماجد ولسليمان المهرى لكن العمل توقف بعد الجزء الثانى ولم تكتمل الفكرة .

وهذه الطبعة الحالية بصفة عامة تحاول لأول مرة باللغة الروسية أن ترسم صورة للنماذج الخاصة بالملاحة البحرية عند العرب . يمكن تعزيز ذلك إلى حد ما بأن العمل على هذا الموضوع لم ينته بعد ومازالت بعض التفاصيل الخاصة غير محددة ومازالت أيضاً بعض الاقتراحات العامة فى انتظار الجواب النهائى لها . وربما كانت هذه المسائل دافعة الأبحاث فى المستقبل . وإن هذه الطبعة قد أخذت فى اعتبارها تذليل الصعوبات لأى مجهود مقبل . بل إن ذلك كان من أهم أهدافها .

* * *

الملاحظات

(١) أفضل ترجمة هذا التعبير لا بالمعنى العادى وهو « كاتب » أى محترف الكتابة وإنما بمعنى كاتب أى محترف الأدب إذ أن سيدى على كان مشهوراً بهذه الناحية أكثر من شهرته كأمير للبحر . ويوضح رينو «Reinaud» معناه بقوله « إنه كان موهوبا بقوة الإرادة وكان يبحث عن المعرفة ، أينما وجدت » (جغرافية أبو الفداء Géographie d'Aboulfeda, I ص CLXV-CLXVI

(٢) نصفها الغربى عبارة عن تصوير المحيط الأطلس وقاراته وقد اكتشفه خليل إيتم إلدم مدير المتحف القومى بأنقرة ودرسه عالم ألمانى يدعى « كَهْلى » P. Kahle : Die Verschollene Columbus-karte von 1948 in einer türkischen weltkarte von 1513).

أنظر صورة الخريطة مصحوبة بمقالة توضيحية ليوسف أكشورا

Akcurà : Piri Reis haritasi hakkinda izahname (Türk Tarihi Arastirma Kurumu Yayinlarindan, No. I)

Istanbul, 1935 (بالتركية ، والألمانية ، والفرنسية)

وأنظر أيضاً : كراتشكوتسكى : خريطة كولومبس لأمريكا : مجهود تركى

(٣) Extracts from the Mohit, that is the Ocean, a Turkish work on navigation in the Indian Seas, translated by : J. Hammer-Purgstall (JASB 1834, pp. 545-553 ; 1936, pp. 441-468 ; 1837, pp. 805-812 ; 1838, pp. 767-780 ; 1839, pp. 823-830.

(٤) Del Muhit a descrizione dei mari della Indie dell'ammiraglio turco Sidi 'Al detto Kiâtib-Rum. Per Luigi Bonelli, RRAL, 1894, pp. 545-553 ; 1836, pp. 441-468 ; 1937, pp. 805-812 ; 1838, pp. 767-780 ; 1839, pp. 823-830.

(٥) Zum, Indischen Ocean des Seidi Ali Bemerkungen zu einer Uebersetzung aus dem Türkischen von der M. Bitner. WZKM, X. Wein 1896, pp. 21-36.

(٦) Die topographischen capitel des indischen seespiegels Mohit übersetzt von dr. M. Bitner, mit einer einleitung sowie mit 30 Tafleln verschen von dr. W. Tomaschek wein 1897.

(٧) Relations de voyages et textes géographiques arabes, persans et turks relatifs à l'Extrême-Orient du VIII^e au XVIII^e siècles. Par G. Ferrand, I-II, Paris, 1913-1914.

(٨) المرجع السابق ص ٤٨٥ . فى الواقع كما أشار إلى ذلك فيران هناك فرق تسع سنوات إذ أن شلبى استخدم مؤلفين لابن ماجد هما « كتاب الفوائد » و « حاوية الاختصار » (مخطوط ٢٢٩٢ و رقم ١ — ٢) .

(٩) أنظر فى هذا الصدد :

Gaudefray-Demombynes : Les sources Arabes du Muhit turc (JA, X^e série, XX, 1912, pp. 547-550).

(١٠) أنظر فيران المرجع السابق ص ٦٦٠ ملاحظه رقم ٢

(١١) أنظر فيران المرجع السابق ص ٤٨٥ ملاحظة رقم ٢

(١٢) على سبيل المثال : انظر مقالة Seidi 'Ali Celebi فى «Introduction à l'astronomie nautique arabe» Paris, 1928, pp. 248-255.

(١٣) Le Pilote Arabe de Vasco da Gama et les instructions nautiques arabes au XV^e siècle (AG, VII, 1922, pp. 289-307).

(١٤) Instructions nautiques et routiers Arabes et Portugais des XV^e et XVI^e siècles : I. Le Pilote des mers de l'Inde, de la Chine et de l'Indonésie. Par Sihab ad-din Ahmad bin Majid. Paris, 1921-1923.

عند بروكلمان خطأ مطبعى فى Supplementband II, 1932, p. 231

(١٥) Les instructions nautiques de Sulayman Al-Mahri (XVI^e siècle). AG, 1923, pp. 298-312.

(١٦) L'élément Persan dans les textes nautiques arabes de XV^e et XVI^e siècles. (JA, IV-VI, 1924, pp. 193-257).

(١٧) Shihâb al-din Ahmed b. Madjid. Encyclopédie de l'Islam. IV, Leyde, Paris, 1927.

(١٨) Instruction à l'astronomie nautique arabe. Paris, 1928.

(١٩) Le Mu'allim, pp. 177-183 ; Ibn Majid, pp. 183-237 ; Sulayman Al-Mahri, pp. 237-248.

(٢٠) Commentaires des instructions nautiques de Ibn Majid et Sulayman Al-Mahri. Par L. de Saussure, pp. 129-175.

(٢١) الرمز الحالى B — 992

(٢٢) الرقم بحسب فهرس المتحف الآسيوى السابق هو Nos. 804-810

(٢٣) Codicum Manuscriptorum arabicorum, persicorum, et torcicorum, qui in Academiae Imperialis Scientiarum Museo Asiatico asservantur.

كتابة على غلاف كتاب

Fraehn — Catalogus MM. Orient. Mus. Asiat. Historia Literaria 7 LXIII.

(٢٤) نقطة الجيم غير موجودة فى نص المخطوط

(٢٥) اعتبر « فرين » خطأ أن هذا البيت هو الأخير ولكن إلى جانب ص١٩٦ يوجد بيتان آخران هما :

صلى الإله فى مساء وسحر على النبى المصطفى خير البشر
مادارت النعوش بالأقطاب واهتدت الزنوج بالسحاب

وبعدهما تأتى كلمة « تمت » (تمت) . وإلى جانب هذا فإن فى البيت المترجم على أنه الأخير يجب قراءة الكلمة « النبى » وليست « النهى » .

(٢٦) فى الواقع يجب قراءة هذا البيت كما يلى :

نبيا سما فوق البراق لربه نبى الهدا المدفون فى أرض طيبتى .

(٢٧) فى وصف « فرين » يختلط عد أوراق المخلوط بالكتب بمعنى أن ورقة واحدة من مخلوط تساوى صفحتى كتاب وقد كان الحال عندئذ كما هو فى الوقت الحاضر أن كل ورقة من مخطوط تساوى صفحة من كتاب .

(٢٨) الخطوة التالية للتدليل على ذلك هى وجود هذه المؤلفات مدرجة فى مصنف آخر من المصنفات الداخلة فى مجموعة المخطوط .

(٢٩) (أنظر ملحوظة ٢٣) Index Librorum Manuscriptorum.... p. 43.

وربما اشترك فى تأليف هذا الفهرس الابن ب. ك. فرين الذى كان خازنا للمتحف الآسيوى من عام ١٨٤٦ — ١٨٨٢ (مجموعة « ذكرى الأكاديمى و. ب. «روزن» . موسكو — لينجراد . ١٩٤٧ ص ١٢٩) .

(٣٠) « مع المخطوطات العربية » الطبعة الأولى ١٩٤٥ — ص ص ٥٠ — ٥٤ وط ثانية ١٩٤٦ ص ص ٧٥ — ٧٩ .

(٣١) أنظر مثلا : الجغرافيون والرحالة العرب « فى » أخبار الجمعية الجغرافية (السوفييتية) ١٩٣٧ . ٥/٦٩ ص ص ٧٣٨ - ٧٦٥ .

(٣٢) الثقافة العربية فى أسبانيا . موسكو — لينجراد ١٩٢٧ ص ٦ .

(٣٣) بكل الأرقام الستة المترجمة عند بروكلمان :

Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur [GAL[, II, Berlin, 1902, p. 179.

تحت رقم ٦ (مخطوط ٢٢٩٢ رقم ٦ وما يليه) ترد «أشعار أخرى متنوعة» وظهور اسم ابن ماجد فى GAL بالإضافة إلى قائمة أعماله الأساسية فى عشرة أعوام حتى بداية دواسة فيران لمخطوط ٢٢٩٢ يمكن تفسيره بأن بروكلمان استخدم فهرس المكتبة القومية بباريس

Bibliothèque Nationale, Catalogue des manuscrits arabes, par M. Le baron de Slane, Paris, 1883-1895.

وواضع هذا الفهرس وهو « دى سلين » يتحدث فيما يتحدث عن المقالة الرئيسية للمخطوط ٢٢٩٢ فيقول فى ص ٤٠١ : « لغة المقالة فيها إطناب والمصطلحات الفنية مركزة لا يفهمها إلا بحارة المحيط الهندى » .

(١٣٣) «Bom Piloto mouvo guzarate. per name Malemocanaqua» (D. de Goes, chronica do felicissimo hei D. Manuel, Lisboa, 1566, fol. 34 recto, cap. XXXVIII. O Malemocanaqua cm. note 47).

وبخصوص الأصل الهندى لابن ماجد فقد ظهر هذا القول فى الكتب المتأخرة :

J. Strandes, «Die Portugiesenzeit von Deutsch-und English-Ostafrica» Berlin, 1899, p. 31.

« بقيادة ملاح هندى استؤجر فى مالندى يدعى مالمو كانا كا أوكانا ، عبرت سفينة فاسكودى جاما الخليج العريض للمحيط الهندى ووصلت إلى الشاطىء الهندى وفى ٢٠ مايو كانت راسية « بالمرساة » فى ميناء كاليكوت .

و W. Ingrams : «Zanzibar, its history and its people» (London,1931, p. 97). فى كتابه :

يقول : « هنا (فى مالندى) حصل (أى فاسكودى جاما) على ملاح اسمه كانا من جوزرات وبه أبحر إلى كاليكوت » .

(٣٤) « سيراف » عاصمة المحيط الهندى فى القرون الأولى لعصرنا وكانت مركز الملاحة والتجارة الإيرانية وفيها ، وسط الثراء الفاحش المتجمع من تجارة (الفرانزيت المرور) وفى المنازل ذات الأدوار الكثيرة عاش رجال البحر . (L'élément Persan, pp. 250-257) ومنذ نهاية القرن العاشر نظراً للزلزال الذى حدث سنة ٩٧٨ بدأت « سيراف » تفقد هيبتها . وتزداد أهمية عمان .

(٣٥) عرفت الصين جزيرة العرب منذ القرن السابع باسم تا — شي وربما جاءت من هنا كلمة « تاجيك » (وهو شعب إسلامى فى وسط آسيا بالاتحاد السوفييتى . المترجم) . وفى القرن التاسع كان إمبراطور الصين يعرف عند العرب باسم « بغبور » أو « فغفور » . وهذا المصطلح يمثل ترجمة من الإيرانية لكلمة تيان — تزى الصينية أى ابن السماء ، أنظر :

L'élément Persan, p. 243.

فى القرن التاسع وصلت كثير من السفن الصينية للملاحة فى المحيط إلى سيراف حيث كانت تأخذ ما يزيد عن حمولتها من البضائع المجلوبة من البصرة ومن هنا يمكن تفسير وجود تسميتين للخليج فى ذلك الوقت : خليج فارس والخليج الصينى. (الرحالة ص ٢١).

(٣٦) فى L. De Saussure : L'origine, p. 118

يرد الوضع التالى عن الملاحة فى المحيط الهندى :

١ — اعتدال هبوب الرياح الموسمية ساعد على الاتصال بين الهند والبحر الأحمر .

٢ — نقاء الجو فى المحيط الهندى مكن بصفة رئيسية من استخدام علامات النجوم السماوية .

٣ — علم الفلك (البيزنطى، واليونانى واليونانى العربى) تجمع له معلومات أساسية ومهمة للملاحة فى هذا الحوض .

٤ — وجود العديد من المراكز الحضارية ووفرة منتجات التبادل ساعد من القدم على خلق حركة تجارية نشطة فى حوض المحيط الهندى .

(٣٧) آريا سورا (أو آريا تورا) : جاتاكا — مالا (جاتاكا سوباراجا) أى « دليل البحر » مكتوب فى الهند بالسنسكريتية وترجم فى بداية العصر المسيحى إلى الصينية سنة ٣٣٤ . مترجم عن :

Sylvain Levi : Pour l'histoire du Ramayana. JA, I-II, 1918, pp. 86-87.

أنظر أيضاً مقالة : س ف. أولدنبورج فى : « المعجم الموسوعى الجديد » (روسى) ص ٥٧

(٣٨) كتاب عجائب الهند (Livre des merveilles de l'Inde)
نص عربى مع ملاحظات لـ «Van der Lith» ترجمة Marcel Devic
Leyde, 1883-1886 ٢٢٠ ص

(٣٩) أى معلم البحر وقد دخلت هذه الكلمة العربية (معلم) فى كل لغات حوض المحيط الهندى أنظر : Introduction — ص ص 182-183) .

(٤٠) اقتباس Introduction ص ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(٤١) ناخذا من الإيرانية « ناوخدا » بنفس المعنى فى « السندباد » ص ٤٣ . تترجم هذه الكلمة رب أو سيد السفينة . وكلمة « معلم » فى العربية تستخدم عادة بمعنى « ربان » والجمع ربابين أو ربانيه .

(٤٢) أكبر نامه ، (طبعة انجليزية) .

The Aini-Akbari, by Abul Fazl Allami, ed. by H. Blochmann, Calcutta, 1872-1877.

(٤٣) فى تعبير « ليث البحر » تلاعب لفظى فى كلمة « ليث » فعندما يلقب ابن ماجد بأنه رابع الليوث أى « الأسود » أو رابع شخص بنى «ليث» يعنى مثل ليث بن كهلان ، ولعل من الممتع أن نشير إلى أنه عند ذكر « سيدنا على أبن أبى طالب » (مخطوط ٢٢٩٢ رقم ١٣) يستخدم كلمة « أسد » بدلا من « ليث » .

(٤٤) ألفونس ألبوكرك (فى خطاب لملك البرتغال فى أول إبريل ١٥١٢). «توماس بو » (فى مجلة السفينة فى ١٢ يوليه ١٦١٥) ورحالة آخرون يشيرون إلى خرائط محلية للمحيط الهندى استمر وجودها حتى القرن السابع عشر .

(٤٥) João da Barros. Decada Primeira de Asia, des feitos que os Portuguezes fizeram no descobrimento e conquista dos mares e terras do Oriente. طبعة أولى Lisboã 1553, طبعة ثانية e novamente dado a Luz e offerecida ao senhor João Bristows. Lisboã, MDCCLII.

« فيران نقلا عن « باروش »

فى «Introduction à l'astronomie nautique arabe»

ص ص ١٩٢ — ١٩٤ ، استطاع أن يستخدم معلوماته عن « رينو » الذى ترجمها فى :

Introduction Générale à la Géographie des Orientaux CCLXXXI).

وأنظر قائمة المراجع بخصوص باروش .

(٤٦) Damião da Goes : Chronica do felicissimo Rei D. Manuel. Lisboã, 1566.

أنظر قائمة المراجع « لِلِيسمَّ » بخصوص معلومات ممتعة عن هذا الكتاب

(٤٧) Fernão Lopez da Castanheda : Historia do descobrimento e conquista da India pelos Portuguezes. Lisboã, 1554.

مالميوكانا لدى المؤلفين البرتغاليين يختلط بابن ماجد .

(٤٨) سبق رحلة فاسكو دى جاما استيلاء البرتغاليين على « سيوطى » (١٤١٥) وفتح رأس الرجاء الصالح (١٤٨٦) وذلك بفضل «بارتلوميو دياز» الذى

اصبح فيما بعد ربان أحد سفن فاسكودى جاما. وقد خرج أسطول دى جاما من لشبونة فى ٨ يولية ١٤٩٧ وفى نوفمبر من نفس العام عبر رأس الرجاء الصالح . ووصل إلى مالندى فى ٢٤ ابريل ١٤٩٨ وفى ٢٠ مايو وصلت البعثة إلى كاليكوت حيث بقيت حتى ١٠ ديسمبر وبعدها عادت بنفس الطريق حتى وصلت إلى لشبونة فى سبتمبر ١٤٩٩ .

(٤٩) L. Camoes. Os Lusiadas (1572)

الجزء الخامس من الأنشودة الرابعة والترجمة الروسية لهذا الجزء من مراجعة الأستاذ م . م . رندى . وقد قام بها «ب . كردى فو» فى كتابه الجغرافيا العربية، ليننجراد ١٩٤١ ص٢٩ . وهناك أيضا الأصل البرتغالى) .

وفى هذه النغمة الرزينة وصف لحظة الوصول إلى كاليكوت : « ملاح من مالندى خرج به العجب عن نفسه : يقول لو أن فنى لا يخدعنى . أمامنا ذى دولة كاليكوت !! هاهى الهند التى تنشدها وبطموحك كن قانعا إذا كان مناك الوحيد أن تكون هنا » ! . :

«Lusiados» :

سانت بطرسبورج ١٨٩٧ ص ١٠٨ (الترجمة الروسية) :

لويس كامويس — شاعر البرتغال الفحـــل فى القرن السادس عشر (١٥٢٥ — ١٥٨٠) .

(٥٠) من الممتع هنا قصة عودة «أمير البحر» عبر ميناء أسبانى (Amari, Storia dei musulmani della Sicillia).

وبدلا من الكلمة العربية «أمير البحر» توجد المندى أو (الأملندى) التى تبدو كأنها غير عربية .

(٥١) الاحتمال الأرجح الذى يجب اعتباره هو ما ورد فى المصادر البرتغالية من أن ابن ماجد وافق على أن يكون ملاح فاسكودى جاما نظير أجر كبير . إلى جانب رغبته فى ألا يفسد علاقته بالرجل الذى أوصى به وهو ملك مالندى . ومن النصوص الممتعة التى ترجمها « فيرّان » (على أساس تسجيلات سفن البعثة ١٤٩٨) نص أصلى من ابن ماجد لفاسكودى جاما قبل الابحار إلى الهند يقول فيه : « لا تقتربوا من شط هذا الميناء (يقصد الساحل الشرقى لأفريقيا فى اتجاه الشمال من مالندى) . اخرجوا إلى البحر المفتوح فهناك تقتربون من شط الهند . ثم ميلوا تحت حماية الأمواج — (Le Pilot, 290) والعبارة الأخيرة تفهم على مايبدو على أساس أن

الموجات الكبيرة فى الأماكن بعيدة الغور هى أقل خطرا من الصخور والشعبان فى المياه الضحلة

(٥٢) قطب الدين النهروالى (١٥١١ — ١٥٨٢) . البرق اليمانى فى الفتح العثمانى (مخطوط ١٦٥٠ — المكتبة القومية بباريس) . تقريظ عن ابن ماجد نشره أيضا داود لوبيز (D. Lopez) فى كتابه :

«Extractos da historia da conquista do Yaman pelos Othmanos», (Lisboã, 1892).

بمناسبة المؤتمر العاشر للمستشرقين :

وبالمثل ، فى الملحمة التاريخية الوطنية لكاميوس يُتغنى بحماس فى أول استقباله للبرتغاليين من جانب أبناء كاليكوت. وعند وصف إقامتهم الطويلة فى الهند تتحول النغمة بصورة حزينة وفى النهاية تقرر : « التخلص من البرتغاليين بواسطة حديد الموت أو إحراق سفنهم حتى لا يرجع أحد منهم إلى ميناء تاخو — وهذه كانت الرغبة الوحيدة للبربر بل إنهم تمنوا لو أن ملوك « لوزياتان » كانوا على غير علم مطلقا بالطريق إلى الهند » . (١٤١ ص Luisiadas) والمقالة الموجودة فى « الموسوعة السوفيتية الكبرى » — بعد ذكر أن فاسكو دى جاما حصل فى مالندى على ملاح عربى محنك تحت قيادته عبر المحيط الهندى — تشير إلى أن كاليكوت كانت مركزا للتجارة الهندية العربية ووجد بها ممثلون عن لشبونة استطاعوا ان يجبروا ممثلى فينا وجنوه فى القرن ١٥ على التخلى لهم عن تجارتهم مع عرب المشرق وأجبروا الاحتكارات التجارية العربية على الهبوط إلى درجة الصفر وتحكموا فى الطرق المائية فى بحار الشرق . وتولدت علاقات عدائية نحو البرتغاليين من جانب تجار البحر من العرب الذين شعروا بكل الخطر فى وجودهم فى الهند ووقف ضدهم أيضا أعيان كاليكوت والسكان المحليون . الموسوعة السوفيتية الكبرى حـ ٩ ص ٦٢ مقالة ر هـ ليبيديفا) .

(٥٣) فى « المحيط » ، وهناك أيضا فى «Le Pilote» ص ٢٩٣ .

(٥٤) هذا المخطوط (٢٧٠ × ١٨٠ — ١٨١ ورقة) بتاريخ ٩٨٤ / ١٥٧٦ (٨٨ أ) اشترته المكتبة القومية سنة ١٨٦٠ من سليمان الحريرى وهو مدرس اللغات الشرقية الحية Ecole des langues orientales vivantes ولأول مرة يشار إليه فى الفهرس الذى وضعه دى سلون :

Catalogue des Manuscrits Arabes, Paris, 1883-1893

وبعد ذلك فى الفهرس الأصلى عند بروكلمان فى الجزء الثانى GAL, Berlin, 1902 الذى اكتشفه «ديمونبين» و«جودفرى» سنة ١٩١٢ وفى سنة ١٩٢٣ طبع فى صورة فوتوغرافية فى الجزء الأول :

«Instructions nautiques et routiers Arabes et Portugais des XV^e et XVI^e siècles».

وفى سنة ١٩٢٠ ظهر مخطوط مماثل فى دمشق (٢٧٨ × ٩٨ — ١٧٣ ورقة بتاريخ ١٠٠٦/١٥٩٢ . انظر : معلومات عنه فى « سعيد الكرم » .

Revue de l'Académie Arabe de Damas.

(فبراير ١٩٢١ ص ص ٢٣ — ٣٥ — نفائس الآثار)

(٥٥) ابن ماجد ص ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٥٦) فائدة حسب مصطلحات ابن ماجد = باب (من أبواب الكتاب) .

(٥٧) هنا تستخدم كلمة أسد لا « ليث » — أنظر ملاحظة ٤٣

(٥٨) يعتبر « فيران » هذا بخصوص الرأى القائل بأن ابن ماجد شيعى المذهب . (٢١٣ ص Ibn Majid) .

(٥٩) توجد فى النص فى صورة الجمع (هراميز) [وأيضا فى أرجوة ليننجراد الأولى ص ٨٣ ا س ٥] .

(٦٠) سيدى على شلبى فى « المحيط » الفصل العاشر : « اغزار أو أرقاق معناها تحديد حالة خروجك إلى البحر أو توجهك إلى الميناء .

ترجمة : Hammer Purgstall JASB, X, 1837, p. 805

(٦١) الضفدع (بطن الحوت اليمانى = ظالم القرد = النهر = ساكب الماء) الحادية عشرة من علامات البرج .

(٦٢) هذا المخطوط (٢١٥ × ١٥٠ — ١٨٧ ص حسب العجوز « فوند » رقم ٦٠٩ بتاريخ ١٥١١/٩١٧) ذكر سنة ١٨٣٢.ج . أسكارى ، هامير — بورشتال ورينو ، وبونللى ، وبيتنر وتوماشيك ، على التوالى لم يعطوا ذلك أهمية وبالغوا فى دور « المحيط » لسيدى على شلبى . حتى فى سنة ١٨٩٧ اعترف توماشيك بجودة تجميع مادة « المحيط » فقال : « لعله الأثر الوحيد النادر من الكتب البحرية الشرقية . وقد حازت تجميع مادته خلال المائة عام الأخيرة من العصور الوسطى على أهمية كبرى» .(Capitel, p. 6) وفى حدود دراسة المخطوطين ٢٢٩٢ ، ٢٥٥٩ فإن محتويات المادة العربية الأصلية هى مصادر « المحيط » وللأخير أهمية مستقلة (بهذا الخصوص أنظر مثلا : رأى « فيران » المعارض :

Fernand : Seidi Ali Celebi 254-255.

صورة المخطوط ٢٥٥٩ التى اكتشفت فى جدة .

(٦٣) أنظر عنه بصفة خاصة :

Ferrand : Les instructions nautiques de Sulayman al-Mahri (XVI^e siècle), AG, 1923, No. 178, p. 298-312. & Sulayman al-Mahri, Introduction à l'astronomie nautique Arabe, pp. 237-248. & Sulayman al-Mahri EI, IV, pp. 529-535 . (الطبعة الانجليزية) .

(٦٤) أى أصول علم البحر .

(٦٥) أى الكتاب العقيدى للمهدى وبيبب « المهرة » فى جنوب الجزيرة العربية.

(٦٦) على عكس ابن ماجد فى عدا الموانى من الغرب إلى الشرق كان المهدى يستخدم الاتجاه العكسى . أنظر : Nautiques, p. 303. ملاحظة ٤٠ :

(٦٧) أى يهب من الشط الأفريقى وجنوب الجزيرة العربية على هرموز وجوزرات وكنكن وملبار وفى الاتجاه العكسى .

(٦٨) بحسب توضيح شلبى نفسه هذا « الفصل » يجب أن يترجم على أساس المعنى الأول لكلمة « محيط ونفهم على أنها : كتاب محيط » أى موسوعة بحرية . وأول مترجم للمحيط هامير بورجشتال فهم العنوان على أنه : بحر محيط » والتزم ذلك فى ترجمته .

(٦٩) فى المخطوطين ٢٢٩٢ ، ٢٥٥٩ اشارات إلى الخرائط المفقودة كلية
أنظر : Nautiques, ٣٠٨ ص .

(٧٠) يصور « فيران » المحيط بأنه مجرد تجميع مترجم للأراجز لوصف الطرق العربية البحرية وأحيانا مايكون أقل مستوى» — (traduction parfois médiocre)
أنظر مثلا : Relations, p. 485, n. 2.

(٧١) وعد « فيران » أن يبرهن هذا عند ترجمته للمخطوطين ٢٢٩٢ ، ٢٥٥٩ ولكن هذه الترجمة لم تظهر. أنظر ملاحظة القصيدة فى «Nautiques» ص ٣١٢

(٧٢) أنظر مثلا الخرائط المناظرة (Tafeln) فى ملحق «Capitel» (I-XXX) أكثر الأعمال التصويرية الاستعارية (عن العرب) هى أعمال الخرائط الجغرافية للبرتغالى « دى لا كوسا » (Juan de la Cosa) « دى كاسترو (da Castro, 1500) والبرتوكانتينو (Alberto Cantino, 1502) ونيفولا دى كانيريو (Niccolo di Canerio, 1503) حتى إصطلاح Pulgada أو Polegada الذى تستخدمه الخرائط البرتغالية (باللاتينية Pollex) هو مجرد ترجمة للكلمة العربية « اصبع » .
ومن الكلمات الأوربية المستعارة من ألفاظ البحر العربية كلمة « أمير البحر » admiral ودار الصناعة arcenal من (دار صناعة البحر) و « أنجر » أو لنكر «Anchor» و « حبل » «cable» « وغراب » (golabus) و « حراقة » — (carraca) و « بندر » bandel بالبرتغالية) وكلمات أخرى . ومن الاستعارات البحرية التى أخذها البرتغاليون عن العرب رأس بر (Rasbec) (على الشاطىء الغربى لباب المندب) ، و « شحر » (Sacl) (على الشطر الجنوبى للجزيرة العربية ، وجوادر «Guadel» (جزر عند شط الحجاز) ، وهكذا فإن الحقائق التاريخية تتكلم بلسان واضح مبين عن علو الثقافة البحرية عند العرب حتى ظهور الاستعمار الأوربى فى الشرق .

(٧٣) الحد الفاصل بين الجزء الشمالى والجنوبى للمحيط الهندى يوجد فى النصف

الغربى لخط مالندى — كاليكوت وهو الخط الذى أتفق أن سارت فيه البعثة البرتغالية الأولى سنة ١٤٩٨ والجزء الشمالى يمثل منطقة تجمع الرياح الجنوبية الغربية الشرقية (خريطة ٤ فى GAW

(٧٤) فى عنوان فصل المخطوط الدمشقى توجد : « شهاب الدنيا والدين »

(٧٥) أنظر ص ١٨٣ / س ٩ فوق وص ١٠٤ ب/س ٣ — ٣ فوق فى المخطوط الليننجرادى B-992

(٧٦) اللقب الأخير يوجد أيضا فى المخطوط الليننجرادى فى صورتين « رابع الثلاثة » (ص ١٨٣/س ٩ فوق ، ص ٩٧ب/س ٦ — ٧ فوق) و « رابع الليوث » (ص ١٠٤ب/س ٣ فوق) .

(٧٧) أى نوح . وفى نفس المخطوط ٢٢٩٢ ص ١٠١ ا ترد تحت « أبونا الثانى »

(٧٨) هكذا أفضل ترجمة كلمة « البحريات » متسقة فى المعنى مع سياق الكلام التالى : والخلجان وأطراف المحيط هذا على عكس فيران الذى يقول أنها « البحيرات » وهذا فى نظرى غير ضرورى .

(٧٩) فى إشارته إلى المسافة الكبيرة بين خرسان وبغداد أراد ابن ماجد أن يؤكد اتساع دولة العباسيين ولم يشر فيران إلى هذا فى ترجمة لهذه الصورة . (L'élément Persan, 199).

(٨٠) يذكر الحديث لا عن حفيد الليث بن كهلان كما يمكن أن يتصور من النص وإنما عن حفيد سهل بن أبان الذى يرد اسمه كاملا فى ص ٣٨ب من نص المخطوط ٢٢٩٢ وهو اسماعيل بن حسن بن سهل بن أبان .

(٨١) أى فى « الراهمانج » (راه نامك فارسية) وبخصوص هذا المصطلح . أنظر L'élément Persan ص ص ٢٠٩ — ٢١٥

(٨٢) سنة ١١٨٤/١١٨٥م .

(٨٣) فى ترجمة « فيران »

«Ces gens-là sont des comiplateurs, mais pas des autreurs originaux».

(٨٤) «طلعوا البحر» أى خرجوا إلى البحر وليس طلع من الطلوع أى الارتفاع كما ترجمها «فيران» مفترضا أن ابن ماجد كان أمام عينه خريطة عربية حيث يوجد الجنوب فى أعلاها. أنظر ص ٢٠٠ ملاحظة ١ : (L'élément Persan) ومن المستبعد أن يكون ابن ماجد وهو «الربان العملى» قد استعمل خرائط عتيقة معيبة لم يرد لها أى ذكر فى أى مؤلف من مؤلفاته. وفى مكان آخر يفهم « فيران » تعبير « طلع البحر » على أنه ببساطة أقلع «naviguer» (Ibn Majid ص ٢٢٣ ملاحظة رقم ٥)

(٨٥) «فاستقربوا الطريق وهى مسيرة ثلاثة أشهر من بغداد» فى ترجمة فيران :

«Ils ont raccourci (la durée de) la route, car c'était (avant eux) un voyage de trois mois en partant de Bagdad».

وهنا صيغة الزمن المستقبل c'était واستخدام avant eux غير ضرورى لأن مسيرة الثلاثة أشهر قد حدثت فعلا .

(٨٦) « وصاروا يسألون عن كل بر أهله ويؤرخونه » . وكلمة « يؤرخون » هنا لها معنى «الاستمرار» . فى حين يترجمها فيران :

«Ils ont rédigé une relation de leur voyage».

(٨٧) سنة ١٠٠٩/١٠١٠م .

(٨٨) دَبُوكرَه يحتمل دوكرّا = دبركر (أبو الفداء) أنظر : Relations ص ٤٠٠ ملاحظة ٤)

(٨٩) أى — بحسب مصطلحات ابن ماجد — البلاد الواقعة إلى الشرق من رأس كمرى الطرف الجنوبى للهند (Relations, ، ص ٤٠٠ ملاحظة ٤ L'élément Persan) ص ٢٠٠ .

(٩٠) تتفق مع سنة ١٤٧٥

(٩١) ترفى — جمعها ترفات — ومعناها المعامل الذى يوضح طول الطريق لكل خن يلزم عبوره وذلك حتى يمكن تغيير ارتفاع « نجمة الثريا » أصبعا واحد . أى ١° ٣٧' (Commentaire ص ١٧١ و Note, ص ٢٠) المعنى الخاص لكلمة « الرحوبات » غير واضح (ملاحظة ٣ ص ٢٠١ L'élément Persan)

(٩٢) يقصد « القصيدة الذهبية » (مخطوط ٢٢٩٢ رقم ١٦) .

(٩٣) وفى الحقيقة أن الناس كانوا فى الزمان الأول أكثر حزما ولا يركبون البحر إلا بأهله من شدة الحزم والخوف والحذر من البحر . . فى ترجمة فيران « كلمة « حزما » ترد بمعنى « تعقلا » وبعدها يأتى استدراك غير موجود فى النص العربى . . .

(٩٤) المغناطيس .

(٢٥) ناصر الدين الطوسى (١٢٠١ — ١٢٧٤) عالم فلك مشهور. أنظر عنه :
H. Suter : Die Mathematiker und astronomen der Araber und ihre werke. Leipzig, 1900. ص ١٤٦

(٩٦) أحتان الحقة : أنظر بخصوص هذا المصطلح :
L'élément Persan, pp. 221-222 & L'origine, pp. 31-127 ص ٣١ — ١٢٧

(٩٧) زام جمعها أزوام = ٣ ساعات من الطريق البحرى = ٤ ميلا .

(٩٨) بيت الابرة المغناطيسى = الحقة = الديرة)

(٩٩) الظلمة وبحرها : جنوب إفريقيا وبحيطية (ملاحظة ٤ ص ٢٠٣ L'élément Persan) وأيضا : النهروالى : البرق اليمانى — مخطوط پارس ١٦٥٠ ص ٥ ب .

(١٠٠) أى من الاسكندر المقدونى . بخصوص قصة عن « الخضر » أنظر قصة « نظامى » فى « اسكندرنامه » عن بحث الاسكندر عن المياه الجارية فى بلاد الواقواق .

(١٠١) البحر الكبير أى البحر الأحمر .

(١٠٢) حتى فى منتصف القرن ١٤ كانت ذكرى ابن ماجد مازالت حية لدرجة أنه فى الهند وعلى جزر ملداوة كان هناك منهج عملى فى الملاحة يسمى « ماجدى كتاب »وأراجيز الملاحة اليمنية والمسيرة فى البحر قرأها «الفاتح» « تكريما » لولى سوريا الشيخ ماجد الذى استطاع أن يقرأ باطن الأرض كما لو كانت كرة فى يده . واخترع البوصلة (Burton)

(١٠٣) بحر (القلزم) قلزم العرب أى البحر الأحمر تمييزا له عن بحر قلز العجم أى بحر قزوين (مخطوط ٢٢٩٢ ص ٣٢ب ٦ص ٥١ب) وعند الاشارة إليهما معا تستخدم كلمة «القلزمان » (ص ١٣٥، ص ١٦٢ب) وهذه الكلمة الأخيرة لا تستخدم تقريبا فى الكتب العربية . واستطاع ابن ماجد أن يستعيرها من شهاب الدين بن فضل الله العمرى (مات سنة ٧٤٢/١٣٤١) الذى يقول فى كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » « فى شمال غيلان يوجد بحر القلزم » [مقتبسة فى :
ص ٢٦ ملاحظة ١ L'élément I'ersan)

(١٠٤) عند الشطر العربى للبحر الأحمر قرب جزيرة « مرى » توجد حتى الآن صخرة مائية تعرف باسم عرق «ماجد» نسبة إلى اسم أب مؤلفنا
Ibn Majid (ص ٢١)

(١٠٥) تامرلان حكم البحر بعد اثنين من المسلمين واثنين من الكفار أما المسلمين فهما سليمان بن داود والاسكندر الدورغى والكافرين هما شداد بن عال ونابختنصر . . . أولوغ بك كان عالم فلك مشهور ومن أعظم الحكام العرب (مخطوط ٢٢٩٢ ص ٤٣ ب) .

(١٠٦) معلومات أبى الفضل وعلامى فى «أكبر نامة» عاين أكبرى (حـ ١ كتاب ٢ الفصل ٢٦) . مقتبسة فى Relations ص ص ٥٤٩ — ٥٠

(١٠٧) مع أن « سندباد » فى ألف ليلة وليلة « والمقدسى فى « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم يتحدثان عن انقاذات رائعه من هلاك السن بفضل خرائط الطرق البحرية الإيرانية القديمة إلا أنه ينبغى إفتراض أن ما كان يهمهما بصورة رئيسية هى الحقيقة نفسها أما مكان وزمان ظهور هذه الخرائط فمن الممكن أن يكون قد أخطآ فيها .

(١٠٨) ومن هنا الكلمة البرتغالية balhestilha والفرنسية arbalestrille
أنظر : Note ص ٢٠

١٠٩) ومن هنا جاءت كلمة «سطر لاب» أى وصف لاب أنظر Commentaire.
ص ص ١٥٩ — ١٦١

(١١٠) تمثل كلمة «الحقة» ترجمة للكلمة الإيطالية «bussola» وترسم «الدبرة» على دايرها . وأصل «الحقة» يرجع إلى الصين حيث وجدت إشارة فى القرن ٢٥ قبل الميلاد إلى تقسيم الأفق إلى أربعة أجواء : شتاء = شمال (خيو) ، وصيف = جنوب (سينج) وخريف = الغرب (ماو) وربيع = شرق (فانج) . وهذه الأجواء تتفق مع الرموز الحيوانية : السلحفاة ، الطائر النمر والدراكون . والعقرب المغناطيسى كانت معروفة حتى فى زمن كونفوشيوس (القرن الرابع ق. م) . وينسب إلى القرن الثامن الميلادى تقسيم السنة النجمية الصينية على الأفق على هيئة «أيام» إلى ٣٦٥ ¼ درجة وفى القرن الحادى عشر كان ربابنة سفن التجارة الصينية ومن بعدها الملايوية والفارسية والعربية يستخدمون البوصلة فى ملاحتهم الطويلة فى المحيط الهندى (غالبا فى كانتون — سومطرة وسيراف) وعند انغلاق السماء

(١١١) كان الملاحون فى القرن ١٦ (سليمان المهدى مثلا) على علم بالأربعة وعشرين تقسيما للبوصلة الصينية إلا أنهم كانوا يستخدمون الـ٣٢ أصبعا التى انتقلت منهم إلى أوربا عبر البرتغاليين .
أنظر L'origine) ص٣٨ — ٣٩ ، ٩٥

١١٢ يرجع هذا التصور إلى الصين القديمة حيث كانت تسمى العقرب المغناطيسية بمؤشر الجنوب (تشى — نان) والبوصلة «بآلة توضيح الجنوب» (تشى — نان — كيو) وكان الجنوب بالنسبة لبلاد الصين نور الشرف والمجد فإليه كان يتجه قصر الامبراطور وعرشه وعند الغداء كان الامبراطور يجلس ووجهه فى اتجاه الجنوب .

(١١٣) أبو بكر ابن عبد الله بن أبى بكر بعلوى العيدروس اليمانى توفى ٩٠٩/ ١٥٠٣ : شاعر من «زبيد» من جنوب الجزيرة العربية .

(١١٤) مثلا «ملعق» فى مكان تلتقى (ص ٨٥ ب/س ٢٦ ، المعقل فى مكان يعقل (ص ٨٦ ا/س ٢٢) وهكذا .

(١١٥) مثل شركوحها فى مكان شرحها (١٨٤ ا/س ٦) ، اسهما فى مكان اسمها (١٨٦ ا/س ٢١) وهكذا .

(١١٦) مثل رأس جمحة فى مكان رأس جحمة (ص ٨٦ ب/س ١٥) والعار فى مكان الأزيب (ص ٨٧ب/س ٧)

(١١٧) مثل فى كلما فى مكان فى كل ما .

(١١٨) مثل تقربا لفر جى فى مكان تغز بالفر جى (ص ٨٣ ب/س ١) والربابين فى مكان الزبانين (ص ٨٩ ا/س ٢٠)

(١١٩) مثل تراوه (ص ١٨٧ ا/س ٢٨) فى مكان براوه وسبح سحوه (ص ٩٥ ا/س ٥) وشيخ شجوه ص ٩١ ا/س ١٠ وسبح شنحوا (ص ٩١ ا/س ١٣) وشيخ شنجوه (٩١ ا/س ١٦) فى مكان شُنجْ شُنجْوا

(١٢٠) مثلا «راس مدور» ليست «رَأس مُدَوَّر» كما قد يبدو لأول وهلة . وإنما هى راس مِدْوَرَ (ميناء على الشط الغربى للهند) حيث «ور» فى اللغة السنسكرينية «ڤارا» أى بلد . وأيضا المقدس حيث لا توجد نقط على الشين ويصعب تصور أنها أرض المقدش أى مقدشوه (مقديشيو)

(١٢١) مثل شيت فى مكان شئت والسحايب فى مكان السحائب .

(١٢٢) حتا بدل حتى ، علا بدل على والا بدل الى

(١١٣) مثل الى بدل الا

(١١٤) لاينبغى بالطبع أن نقارنه بحافظ الذى كان يحفظ القرآن كله عن ظهر قلب فقراءة القرآن أو حفظه يبدأ عادة منذ الطفولة ويدعم بالممارسة الدينية على مدى الحياة .

(١٢٥) مثل ص ٨٣ب/س١٦ :

أربع أصابع فى قياس واحد ... وثلث أيضا فوقهم زوايد

وص ١٨٤/س ٨

فى أول الشرطين والضاق ... صحيح قياسهم فى الآفاق

وص ١٠٠ب/س٢ :

يحسبهن جزر مفردات ... أطرافهن الكل مسلوبات

وص ١١٠٢/س ٤ :

فإن رأيت الجزر غابوا عنك مل ... لم يبق منهن سوا قرن جبل

وص ١١٠٥/س ٤ :

ترا النسر فيه والذراع محكما ... لسبع ونصف ليس فيهن ...

وص ١١٠٥/س ١٥

مسافتهم زامين والريح طيب . . .

(١٢٦) مثل ص ١٨٣/ص٦ فوق :

ذكر قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة

وص ٩٧ب/س٢ — ٣ فوق :

شمطوة وبر السيام وملعقة وجاوة وما كان فى طريقهم من الجزر والشعبان ومناتخهن وصفتهن .

(١٢٧) مثل ص ٨٤ب/س٥ :

وقس على المعقل والمربع ... فهن معلومات معكم ومعى

وص ١٨٥/س ٤ :

والمعقل المذكور والمربع ... مسيرهم كالجاه أصبع بأصبع

وص ١٨٩/س ٧

وبينهم طريق للمسافر ... للقمرا وسعده والجزاير

وص ١٩٩/س ١٣ :

. . . . . عشر جزاير كن بهن دارى

وص ١٩٩/س١٤ :

فيهم الجزيرة المشهورة

(١٢٨) مثل ص٨٤ب/س٢ : (عن نجمة البار والجاه) :

احفظهن فى الغروب ذكرتهم فى النظم عن تجربى

وعن نجمة الفراد وبطن الحوت ص٨٥ب/س٥ :

وهن ابدال يجردفون فى الغرب والشرق لهم فنون

وعن نجمة السهيل والظليم ص ١٩٨/س ١٤ :

هم ستة وربع فيهن النفس فسهن ....

(١٢٩) مثل ص ١٩١/س ١٧ :

وجزيرة الحنشلان فى جنوبيها شعب الظهرة ....

(١٣٠) هذه بعض الأمثلة :

موسمه سبعين (يوما) ص٨٣ب/س٩ . تلقاية السهيل والظليم

ستة ونصف (أصابع) ص٨٣ب/س١٣

راح . معا سهيل عشرة (أصابع) ص٨٥ب/س٩

وأمثلة أخرى .

(١٣١) مثل ص ٨٣ب/س٢

ثم قستا الحوت بالتحقيق مع بطن ذا الحوت يارفيقى

وص ٨٥ب/س١٢

قسهن واحرسهن كمثل من حرس

وص ١٨٩/س ١٨

هى ماشية بيضاء بندر أزيب والكوس جل الخالق المرتب

وأمثلة أخرى ....

(١٣٢) مثل عبارات : خذ وصاتى ، كن به عليم ، مل بلا خفا ، خذ تجربي افعل بأوصافى وخذ بقولى ... وهكذا ..

(١٣٣) مثل (حكوا — مغارب)ص ٩٤ ب/س ٢٣ ، و (بعض — وعظى)
ص٩٥ب/س٢٤ ، و(قفاصى — ناس)ص١١٠٢/س٦ ، ص١٠٣ب/س١٥
و (قفاصى — باش) ص ١٠٢ ا/س١٦

١٣٤) مثل (قياس — باش) ص ٨٣ب/س١٧
و (البيناتى — التباثى) ص٨٦ب/س١٨ ، (تعرفا — تلقا) ص ١٩١/س ١٣
و(الذى — اهتدى) ص ١٩٣/س٣٣ و (تأتى — ثلاث) ض ٩٣ب/س٣٣
و(يأتى — ثلاث) ص ٩٥ب/س٣٦ ، و (زادا — كذا) ص١١٠٣/س١ .

١٣٥) مثل : (غروب — تجريبى) ص ٨٣ ب/س١٥ ، ٨٤ب/س٢
و (بحرا — بحر) ص١٨٤/س٥ . و (طويل — خليلى)
و (أفلاك — زواكى) و (القلب — ربى) ص٨٤ب/س ١٨،١٩،٢٠ .
وأمثلة أخرى .

(١٣٦) مثل : (عنه — منه) ، (منه — عنه) ص ١٩١/س ٢٢
و ص١٩٣/س١٦ ، ١١٠٠س٧ . ص ١٠٣ب/س١١
وأيضا (مصنف — يعرفه) ص ٨٤ ب / س ١٧ و (أعزله — أوله)
ص١٩١/س٢ ... وهكذا .

(١٣٧) مثل : (خشبه — احسبه) ص ٨٤ ا/س٢٣
و(ستة — نعته) ص ٨٧ب/س١٥ ، ص ٩٢ب/س٢٣
و(أربعة — أسفعة) ص ١١٠٤/س١٣ .

١٣٨) مثل الحارى (بدل الحارين) — دارى) ص ٩٧ ب/س٧ وأشوارى)
ص١١٠٢/س٧ أو (الجارى — الحارين) ص ١٨٧/س٤ .

(١٣٩) مثل (مراه — ماه) و (العقرب — أقرب) و (منها — عنها)
و(صاحب — مغارب) و (تحقيق — طريق) وهكذا ...

(١٤٠) مثل (خروجه — ولوجه) ص ٨٣ب/س٩
و(خروجهم — ولوجهم) ص ٩٤ب/س٦ ٢

و(تراهم — نباهم) ص ١٠٤ ا/س٤
و(تراه — نباه) ص ١٠٤ ا/س٥

(١٤١) مثل : (دمونى — النعوث) ص ٩٥ب/س٨
و(تأديب — شديد) ص ١١٠٢/س٤

(١٤٢) مثل (سبعة — سبعة) ص١٨٦/س٥
و(وصف — وصف) ص ١٨٨/س٨
و(نحاس — نحاس) ص ٩٤ب/س٢
وهكذا ...

(١٤٣) مثل (خمسين — عشرين) ص ١٩٢/س٢٨
و(أربعين — تسعين) ص ٩٨ب/س٩

(١٤٤) مثل (زنج — أفرنج) ص ١٩٤/س١٥
و(دنج دنج — فينتج) ص ١١٠٠/س١٢ ، ١٠٠ب/س١٦

(١٤٥) مثل (أقرب — العقرب) و (بالهودانى — فهو دانى ص ١٨٨/س٦) .
و(قليل — الأكليل) ص ٩٩ب/س١٩

(١٤٦) مثل : (نحاس وأنحاس) ص١٩٣/س٩
(١٤٧) مثل (ص١٩٦/س٣٠) :
مادارت النعوش بالأقطاب واهتدت الزنوج بالسحاب

(١٤٨) مثل فى ٨٨ب/س١١ فى قوله :
وعن ذا التيرهن سهميْن
والتلاعب هنا فى كلمة «السهمين» و «التير» إذ أن كلمة «التير» تعنى بالفارسية نفس المعنى العربى (السهم) وتعنى أيضا اسم نجمة نبات نعش .

(١٤٩) مثل تبار — البر والجدى والجودى

(١٥٠) الكلمة الفارسية «نيشان» التى لم يفسر معناها الخاص حتى الآن تستخدم

مرة واحدة فى الأراجيز (ص١١٠٣/س١٥) .

(١٥١) ص١٩٤/س١٢ ، ١٣ :

جازتها فى عام تسعماية　　مراكب الأفرنج ياغاية
تجيز عامين كاملين　　فيها ومالوا الهند باليقين

(١٥٢) ص ١٨٥/س٢٧ ، ص ٨٥ب/س ١ :

واسمه الفرغ بغين معجم　　قال الدميرى ذا بلاتوهم
فى شرحه المنهاج ياربان　　سمعنا فى كتاب ثانى